المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية بجرجا

التأثير والتأثر في الدراسات اللغوية بين العرب والغرب آلياته ومظاهره

Influence and influence in linguistic studies between Arabs and the West, its mechanisms and manifestations

بقلم الدكتور

ممدوح إبراهيم محمود محمد

أستاذ فقه اللغة في كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المملكة العربية السعودية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار سبتمبر ٢٠٢٥م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

التأثير والتأثر في الدراسات اللغوية بين العرب والغرب آلياته ومظاهره

ممدوح إبراهيم محمود محمد

قسم اللغة العربية في كلية اللغة العربية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني : d.mamdoh2013@gmail.com

الملخص

نشأت الدراسات اللغوية عند العرب متأخرة كثيرًا من حيث الزمن عن الدراسات اللغوية التي ازدهرت في الأمم الأخرى كالهنود واليونانيين والصينيين قبل الميلاد بقرون عديدة، حيث لم يعهد للعرب قبل الإسلام أي نوع من هذه الدراسات التي نشأت مرتبطة بالقرآن الكريم وخادمة له في جميع مجالاتها، ثم ازدهرت هذه الدراسات وانتشرت مع انتشار الإسلام في الوقت الذي مرت فيه الدراسات اللغوية في الغرب في العصور الوسطى بمرحلة ركود طويلة، واختصت هذه المرحلة بالبعد عن البحث العلمي اللغوي الدقيق، واستمرت هذه المرحلة من الركود حتى عصر النهضة الأوربية، ثم ما لبثت أن ضعفت اللغة العربية في العصر الحديث نتيجة عوامل عدة فسادت الدراسات اللغوية الغربية. وفي كثير من هذه المراحل حدث تواصل بين العرب والغرب أدى إلى التأثير والتأثر بينهما في الدراسات اللغوية؛ ولهذا كله أردت من خلال هذا البحث الموسوم بـ (التأثير والتأثر في الدراسات اللغوية بين العرب والغرب آلياته ومظاهره) أن أجلي الأمر وأوضحه، وأن أبين آليات هذا التأثير ومعالمه ومظاهره. إذ يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية: هل تأثرت الدراسات اللغوية عند الغرب بالدراسات اللغوية عند العرب؟ وما مدى هذا التأثر؟ وهل تأثرت الدراسات اللغوية عند العرب بالدراسات اللغوية عند الغرب قديما وحديثا؟ وما مدى هذا التأثر؟ ما هي الآليات والمعابر الرئيسة التي لعبت دورا رئيسا في التأثير والتأثر بين العرب والغرب؟ وللإجابة على هذه الأسئلة جاء هذا البحث مشتملا على: مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع. أما المباحث الأربعة فكانت على النحو التالي: المبحث الأول: بلاد الأندلس وصقلية ودورهما في نقل الدراسات اللغوية العربية إلى الغرب. والمبحث الثاني: الترجمة ودورها في نقل التراث العربي الى الغرب. والمبحث الثالث: الحروب الصليبية ودورها في نقل التراث العربي إلى الغرب. والمبحث الرابع: شهادات المنصفين من علماء الغرب على تأثرهم بالدراسات العربية والإسلامية عامة واللغوية منها خاصة.

وقد توصل البحث إلى عدة نتائج منها: أن الأصالة في الدراسات اللغوية قدر مشترك بين الحضارات، ومنها: أن الدراسات اللغوية عند الغرب قد تأثرت بالدراسات اللغوية العربية في العصور الوسطى عبر عدة معابر أو آليات هي بلاد الأندلس وصقلية، الترجمة، الحروب الصليبية. ومنها أن الدراسات اللغوية العربية في العصر الحديث قد تأثرت بالدراسات اللغوية الغربية نتيجة الاستعمار الأجنبي أو الغزو العسكري، والبعثات الخارجية.

الكلمات المفتاحية: التأثير ، التأثر ، الدراسات.

Influence and influence in linguistic studies between Arabs and the West, its mechanisms and manifestations

Mamdouh Ibrahim Mahmoud Mohammed
Department of Arabic Language at the College of Arabic Language - Imam Muhammad bin Saud Islamic University - Saudi Arabia.
Email: d.mamdoh2013@gmail.com

Abstract

Linguistic studies among the Arabs originated much later in time than the linguistic studies that flourished in other nations such as the Indians, Greeks and Chinese many centuries before Christ, as the Arabs before Islam were not entrusted with any type of such studies that arose related to the Holy Qur'an and served it in all its fields, then these studies flourished and spread with the spread of Islam at a time when linguistic studies in the West in the Middle Ages went through a long period of stagnation, and this stage was specialized in being far from This stage of stagnation continued until the European Renaissance, and then the Arabic language weakened in the modern era as a result of several factors that corrupted Western linguistic studies. In many of these stages, communication between the Arabs and the West took place, which led to their influence and influence in linguistic studies, and for all this reason, through this research entitled 'Influence and Influence in Linguistic Studies between the Arabs and the West, Its Mechanisms and Manifestations', I wanted to clarify and clarify the matter, and to explain the mechanisms, features and manifestations of this influence. This research aims to answer the following questions: Has linguistic studies in the West been influenced by linguistic studies among Arabs? And how much is this impact? Have the linguistic studies of the Arabs been influenced by the linguistic studies of the West in the past and the present? And how much is this impact? What are the main mechanisms and crossings that have played a major role in influencing and influencing Arabs and the West? In order to answer these questions, this research included: an introduction, a preface, four topics, a conclusion, and an index of sources and references. The four topics were as follows: The first topic: Andalusia and Sicily and their role in transferring Arabic linguistic studies to the West. The second topic: Translation and its role in transferring the Arab heritage to the West. The third topic: the Crusades and their role in transferring the Arab heritage to the West. The fourth topic: the testimonies of the fair-minded scholars of the West on their influence on Arabic and Islamic studies in general and linguistic studies in particular.

The research reached several conclusions, including: that originality in linguistic studies is a common value among civilizations, including: that linguistic studies in the West were influenced by Arabic linguistic studies in the Middle Ages through several crossings or mechanisms, namely Andalusia and Sicily, translation, and the Crusades. For example, Arabic linguistic studies in the modern era have been influenced by Western linguistic studies as a result of foreign colonialism or military invasion, and foreign missions.

Keywords: Impact, Impact, Studies.

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدمة

الحمد لله رب العالمين الهادي إلى سواء السبيل، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين. **أما بعد:**

فقد نشأت الدراسات اللغوية عند العرب متأخرة كثيرًا من حيث الزمن عن الدراسات اللغوية التي ازدهرت في الأمم الأخرى كالهنود واليونانيين والصينيين، حيث لم يعهد للعرب قبل الإسلام أي نوع من هذه الدراسات التي نشأت مرتبطة بالقرآن الكريم وخادمة له في جميع مجالاتها، وقد كان ذلك مدعاة عند البعض بتأثر الدراسات اللغوية عند العرب بعد الإسلام بما سبقها من دراسات عند الأمم الأخرى لا سيما بعد انتشار الترجمة عن التراث اليوناني في العصر العباسي الأول وهو العصر الذي دونت فيه العلوم اللغوية، فذكر بعضهم أن النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني، وذكر آخرون أن الخليل بن أحمد قد تأثر في معجمه العين بالهنود الذين عاش على مقربة منهم في عمان أو بما ترجمه حنين بن إسحاق عنهم، وفي إبان العصور الوسطى المظلمة في الغرب نشطت الدراسات اللغوية وغير اللغوية عند العرب نشاطا واسعا ملحوظا حتى أضحت بعد انتشارها في الغرب نبراسا يهتدون به ومشعلا لحضارتهم التي ازدهرت بفضل علوم العرب في عصر النهضة الأوربية رغم محاولات طمس معالم هذه الحضارة العربية الإسلامية والتنكر لها من قبَل بعض العلماء الأوروبيين المتعصبين منهم خاصة؛ لأسباب عنصرية أو دينية، أو لأسبابٍ تتعلق بمجرد الجهل بما قدمته الحضارة العربية الإسلامية في مسيرة الحضارة الإنسانية الشاملة. أما في العصر الحديث فقد ثبت بما لا يدعو مجالا للشك وقد ضعفوا سياسيا واجتماعيا وفكريا وأصبحوا متلقين لا فاعلين في الحضارة الإنسانية تأثر العرب بالحضارة الغربية نتيجة الغزو العسكري، والغزو الفكري، والبعثات الخارجية وخاصة بعد عودة اللسانيين المصريين من الجامعات

الأوروبية وهو الأمر الذي يعد البداية الحقيقية في كتابة تاريخ اللسانيات العربية الحديثة، فهذا أمر مشاهد وملموس ولا ينكره أحد، فالعالم العربي الحديث يتقدم في الاستفادة من حضارة الغرب؛ وذلك لأن الفكر اللساني الغربي يعتبر أهمّ ما أفرزته الحضارة اللغوية الحديثة في ظل عالَم مسارع إلى اكتشاف النظريات المعرفية وصبغها بالطابع العلمي.

ولهذا كله أردت من خلال هذا البحث الموسوم بـ (التأثير والتأثر في الدراسات اللغوية بين العرب والغرب آلياته ومظاهره) أن أجلي الأمر وأوضحه، وأن أبين آليات هذا التأثير ومعالمه ومظاهره. إذ يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية: هل تأثرت الدراسات اللغوية عند الغرب بالدراسات اللغوية عند العرب؟ وما مدى هذا التأثر؟ وهل تأثرت الدراسات اللغوية عند العرب بالدراسات اللغوية عند الغرب قديما وحديثا؟ وما مدى هذا التأثر؟ ما هي الآليات والمعابر الرئيسة التي لعبت دورا رئيسا في التأثير والتأثر بين العرب والغرب؟ وللإجابة على هذه الأسئلة جاء هذا البحث مشتملا على: مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع. أما المباحث الأربعة فكانت على النحو التالي: المبحث الأول: بلاد الأندلس وصقلية ودورهما في نقل الدراسات اللغوية العربية إلى الغرب. والمبحث الثاني: الترجمة ودورها في نقل التراث العربي الى الغرب. والمبحث الثالث: الحروب الصليبية ودورها في نقل التراث العربي إلى الغرب. والمبحث الرابع: شهادات المنصفين من علماء الغرب على تأثرهم بالدراسات العربية والإسلامية عامة واللغوية منها خاصة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، فإن أكن وفقت فيما كتبت وفيما هدفت إليه فبتوفيق من الله – ﷻ – وإن كان فيه نقص فالله هو الكامل والنقص في الناس شامل.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:٨٨]

التمهيد

الدراسات اللغوية عند العرب والغرب بين الأصالة والتأثير والتأثر

مرت الدراسات اللغوية في الغرب في العصور الوسطى بمرحلة ركود طويلة، واختصت هذه المرحلة بالبعد عن البحث العلمي اللغوي الدقيق، واستمرت هذه المرحلة من الركود حتى عصر النهضة الأوربية، خلافا لما كانت عليه الدراسات اللغوية العربية والتي كانت بجهود أشخاص لا يعرفون الملل في سبيل خدمة كتاب الله – ﷻ – فقد كانت دراستهم – وستبقى – شاهدة لهم بطول الباع في خدمة اللغة العربية بعامة، والدراسات اللغوية خاصة. وبعد عصر النهضة الأوربية اتجه العلماء الغربيون لدراسة اللغات الشرقية العربية والعبرية بخاصة، وبمقارنتها باللغات المعروفة عندهم، فبهرهم ما وجدوه في اللغة العربية من تقدم في نظام الأصوات والتراكيب وفي المعاجم الغنية بمفرداتها وتنوع مدارسها وطرق ترتيبها ودقة تنظيمها وشمولها واتساعها، وفيما تركه الخليل وسيبويه والفارابي وابن سينا وابن جني والجرجاني، فتناولوا اللغة العربية معتمدين على ما توصلوا إليه في نتائج البحوث السيكولوجية للوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلم، فنشأت لديهم مجموعة مدارس تختلف إحداها عن الأخرى، وجاء هذا الاختلاف من وجهة نظر أو منهج وطريقة علماء كل مدرسة في تحليل النصوص أو البحث عن المعنى، وقد اعتمد مؤسسو هذه المدارس على أفكار العالم السويسري دي سوسير وآرائه الفريدة.

ومن الواضح أن العرب قديما لا سيما في العصر العباسي الأول والثاني كانوا سبّاقين في المجال اللغوي غير مقلدين، وأنهم نموذج يحتذى في كل المحافل والأوقات، ولقد استفاد الغرب كثيرًا من الموروث اللغوي العربي، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان أساسًا ونبراسًا لكثير من الدراسات اللغوية الغربية. فلغتنا العربية هي إرث ضخم، تركه لنا الأجداد في أكثر من اثني عشر مليون كلمة ونيف من دون تكرار، وذلك طبقًا لإحصاء عبقري العربية الخليل بن أحمد الفراهيد (ت ١٧٠هـ)،

ولم يستعمل منها إلا أقلها، وهو ما يعتبر أضعاف عدد كلمات اللغة الإنجليزية التي تتكون من ٦٠٠ ألف كلمة فقط. وقد بدأت اللغة العربية تاريخها المعروف بخصائصها المميزة لها اليوم في عصر سابق للدعوة الإسلامية، يرده علماء المقارنة بين اللغات إلى القرن الرابع قبل الهجرة، ويرجع – فيما نعتقد – إلى عصر قبل ذلك؛ لأن المقابلة بينها وبين أخواتها السامية يدل على تطور لا يتم في بضعة أجيال، ولا بد له من أصل قديم يضارع أصول التطور في أقدم اللغات، ومنها السنسكريتية وغيرها من اللغات الهندية الجرمانية. فلا بد من أجيال طويلة تمضي قبل أن ينتهي تطور اللغة إلى هذه التفرقة الدقيقة بين أحكام الإعراب، أو بين صيغ المشتقات، أو بين أوزان الجمع والمثنى وجموع الكثرة والقلة في الأوزان السماعية، ولا بد من فترة طويلة يتم بها تكوين حروف الجر والعطف وسائر الحروف التي تدخل في تركيب الجملة بمعانيها المختلفة، وتنفصل بلفظها من ألفاظ الأسماء والأفعال التي تولدت منها، وهي في بعض اللغات لم تنفصل عنها حتى اليوم. ولكن هذه اللغة – على قدمها – تتجدد لها مزايا متعددة كلما تقدمت الدراسات الحديثة في العلوم اللسانية والصوتية، ويرجع الباحثون إلى خصائصها، فيكشفون جانب المزية فيها وجانب الرجحان منها على غيرها، بعد أن كان فريق منهم يحسبها شذوذًا يدل على النقص أو يدل على جمود في التطور على سنة اللغات الشائعة بين لغات الحضارة الكبرى. (١) يقول حسين نصار في كلمة ألقاها بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية مؤكدًا ذلك: "إن أكبر تحد واجهته اللغة العربية كان عندما أخرجها الإسلام من جاهلية غنية كل الغنى في الإبداع الأدبي فقيرة كل الفقر في الإنتاج العلمي، ثم ألقى بها في القرنين الثاني والثالث الهجريين في بحر زاخر بالحضارات وكل صنوف المعرفة التي ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية كالفرس والروم والسريان والمصريين، والأمم البعيدة كالهنود والصينيين والأتراك والبربر وشعوب إسبانية، ولكن العربية ثبتت لهذا

(١) اللغة الشاعرة – عباس محمود العقاد صـ ٧.

التحدي بفضل ما بثه الإسلام في العرب من رغبة في المعرفة وسعي في طلبها وطموح وعزم وتخطيط وتنفيذ وتعاون مع غير العرب من أبناء الشعوب العارفة باللغات الأجنبية فصار ما كتبه هؤلاء المفكرون والعلماء منذ القرن الثالث الهجري نبراسًا استضاءت به شعوب العالم القديم. لا يستطيع أن ينكر ذلك إلا منكر لعقله، منكر لشمس النهار الصحو، منكر لتاريخ الإنسان وتطوره الحضاري". (١)

فاللغويون العرب القدماء لم يكتفوا بدراسة لغتهم دراسة سطحية لعلاج مشكلة اللحن وانحراف الذوق، بل إنهم قد أبدعوا في بحوثهم واستقصوا اللغة من كل جوانبها فخلّفوا لنا تراثا لغويا على درجة عالية من الدقة العلمية والمنهجية يضاهي من حيث قيمته ومكانته الإنتاج اللساني الغربي في العصر الحديث، بل ويتفوق عليه في بعض الأحيان. لقد هب العرب والمسلمون قديمًا إلى دراسة لغتهم بعد أنْ استدعت الحاجة إلى ذلك وتهيأت لهم ظروف البحث والتأليف. فهم لم يتوقفوا عند الملاحظات اللغوية والتعليقات الشكلية الخاطفة والموجزة، ولم يكتفوا بالتنبيه على الأغلاط وتصحيحها، وعقد المجالس العلمية لتفسير النصوص المستغلقة على الناس فحسب، بل تجاوزوا ذلك إلى تدوين العلوم اللغويّة في مؤلفات ليقرأها الناس. ثم صياغة أسس النظريّة اللغويّة العربيّة، بضبط قواعد اللغة، وتفريع العلوم اللغويّة التي يعنى كل واحد منها بجانب خاص من اللغة، ووضع مصطلحات لهذه العلوم للتعبير عن القضايا اللغويّة، فدخلت اللسانيات العربيّة بذلك مرحلة التطور المتسارع الذي كانت انطلاقته الفعلية في القرن الثاني للهجرة، ثم استمر إلى القرون اللاحقة. ويمكن انْ نتلمس مظاهر هذا التطور في مناح شتى من الدرس اللغوي العربي. وقد حاول بعض المستشرقين والدارسين العرب المحدثين التقليل من شأن ما أنتجه اللغويون العرب القدماء، وتصويره في صورة البحث اللغوي المحلي أو المحدود والضيق الذي لا يتجاوز حدود اللغة العربية، والذي لم يدرس اللغة بصفتها ظاهرة

(١) التأثيرات الاستشراقية في مسيرة اللغة العربية الفصحى بين الإنصاف والإجحاف – أ/ محمد عيساوي صـ ٣٠٠.

إنسانية يتواصل بها البشر فيما بينهم مثلما فعلت الدراسات اللسانية الحديثة. ولكن القراءة المتفحصة في هذا التراث اللغوي الممتد عبر قرون من الإنتاج العلمي المتقن والجاد تثبت لنا أن كثيرا من الأفكار اللغوية والقضايا التي عالجتها المدارس والنظريات اللسانية الحديثة كان علماؤنا العرب القدامى قد تطرقوا إليها في مباحثهم، وعالجوها في إطار الدراسة اللسانية الواسعة لا في حدود اللغة العربيّة فحسب. يقول عبد السلام المسدي: "العرب بحكم مميزات حضارتهم وبحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات قد دعوا إلى تفكر اللغة في نظامها وقدسيتها ومراتب إعجازها فأفضى بهم النظر إلى درس شمولي كونيّ للغة فحسب، بل قادهم النّظر أيضًا إلى الكشف عن أسرار الظاهرة اللسانية، مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرًا بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين". (١)

ومن هنا فقد كان لهذه الحضارة العربية القديمة في جميع جوانبها العلمية والفكرية أثر بارز في التاريخ الأوروبي الحديث وهو ما أكده العقاد في قوله: "وكانت أمم الشرق العربي في مقدمة الأمم التي انصرفت إليها جهود أولئك الباحثين والمستطلعين؛ إذ كانت في موقعها المتوسط بين القارات الثلاث قِبلة الأنظار، ومحور المقاصد، ومدار البحث في أصول التواريخ والعقائد، بل أصول الثقافة الأوروبية التي لا تعدو أن تؤول إلى الديانات الكتابية أو ثقافة اليونان.. فليس فيما وصل إلينا عن تاريخ الثقافة العربية شيء ينقض قواعد الفكرة الغالبة عن أثر حضارة العرب في التاريخ الأوروبي الحديث، وإنما تتجه هذه الزيادة إلى التوكيد والتثبيت، ولا تتجه إلى النقض والتغيير، فمن المراجع الأخيرة نعلم – مثلًا – أن أثر السلالة العربية أقدم جدًا مما يظنه الكثيرون، وأنها توغل في القدم إلى ما قبل التاريخ، وقد يكون هذا الأثر نتيجة لهجرة العرب إلى القارة الأوروبية قبل هجرة القبائل الهندية الجرمانية إلى تلك القارة. ويعزز هذا الرأي أن البلاد العربية كانت في تلك العصور القديمة أقدر على صناعة السفن، وأرقى عُدَّةً للملاحة في عرض

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية – د/ عبد السلام المسدي صـ ٢٦.

البحار؛ لأنها كثيرة الغابات، موفورة المنابع التي يستخرج منها الطلاء واللحام .... فالمراجع الحديثة تؤكد أثر العرب في القارة الأوروبية، وتعود به إلى أزمنة أقدم من تاريخه الذي كان مفروضًا قبل جيل أو جيلين. وهذه المراجع الحديثة تزودنا في العصور التاريخية بالبراهين التي كانت تعوزنا لتقرير بعض الحقائق، والخروج بها من دائرة الظن والاستنتاج المعقول... فالمراجع الحديثة التي تستقصي البحث عن أثر العرب في الحضارة الأوروبية لم تُغيِّر شيئًا من قواعد الفكرة الغالبة التي شرحناها في هذا الكتاب، وإنما استحدثت في هذا البحث توكيدًا لها وأدلة عليها، ولا تزال تتجه كل عام إلى مزيد من التوكيد والتثبيت". (١)

ومما يدل على انتشار العربية في أوروبا منذ وقت مبكر اهتمام العلماء والمثقفين الأوروبيين بدراسة اللغة العربية التي كانت لغة العلم والحضارة في ذلك الوقت، فكان ويليام بدويل (١٥٦١-١٦٣٢م) أول من أدخل الدراسات العربية إلى إنجلترا، كما كانت اللغة العربية تدرس في جامعة أكسفورد كبرى جامعات إنجلترا، وكانت دراستها إجبارية لجميع الطلاب. (٢) وبقيت العربية هي لغة العلم الأولى في العالم لقرون عديدة، إذ كانت هي لغة العلم والحضارة والحياة على حد سواء، وكان لهذا التوحيد اللغوي أثره البالغ في نشر الثقافة العلمية على أوسع نطاق ممكن في المجتمعات الإسلامية شرقًا وغربًا، مع اختلاف ينابيعها من فارسية إلى هندية إلى سريانية إلى يونانية. لقد أضحت العربية حقًّا لغة العلماء، بل لغة الشعوب التي دخلها الإسلام، وكانت لغة العلم وحدها، لا تنازعها تلك المكانة السامية أي لغة أخرى، لقد استطاعت العربية استيعاب جميع العلوم التي بلغتها الحضارات التي سبقتها مضيقة إليها علومًا جديدة بمصطلحات ومفاهيم جديدة، وبها كانت تؤلف الكتب، ويتحدث العلماء ويديرون الحوارات فيما بينهم مهما اختلفت أصولهم. تقول المستشرقة الألمانية المعاصرة (زيغريد هونكه): "لقد وجدت العربية تجاوبًا من

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية – عباس محمود العقاد – (مقدمة الطبعة الثانية).

(٢) اللغة العربية أساس نهضة أمتنا ووحدتها – د/عبد الكريم خليفة صـ ٢٥ – ٢٦.

الجماعات، وامتزجت بهم وطبعتهم بطابعها، فكونت تفكيرهم ومداركهم، وشكلت قيمهم وثقافتهم، وطبعت حياتهم المادية والعقلية، فأعطت للأجناس المختلفة في القارات الثلاث وجهًا واحدًا مميزًا.. ومن ذا الذي يريد أن يخرج على لغة أوروبا".[١] وهو ما أكده (فانتاجو) فيما نقله عن (رينان) في كتابه (الإسلام والعلم) حيث قال موضحا دور العرب في الحضارة الأوربية: "فقد توقفت الجهود التي بذلها علماء الشرق لتطوير معارف البشر في القرن الثالث عشر الميلادي أي بعد انهيار العرب. وغرق الجميع بعد غزو نابليون لمصر في نوع من انهيار عقلي محزن؟". يقول (فانتاجو) معلقًا على ذلك: "إنها شعوب أخرى شعوب أوربا الغربية فرنسية وألمانية وإنكليزية قد استيقظت في القرن الثاني عشر الميلادي والثالث عشر إثر اتصالها بالعرب فاكتسحت هؤلاء وجعلت من مباحثهم مقفزا لها، وانتهت خلال بضعة قرون إلى نتائج خصبة في ميدان المعرفة وأتاحت للرجال أن يصلوا إلى قمم لم يكونوا آنذاك يرونها. ولم تكن شعوب الغرب حتى ذاك العصر قد لعبت أي دور في إعداد الحضارة، فالغزو الروماني وإن ألحق هذه الشعوب بإمبراطوريته فإنه مع الأسف الشديد قد عجز عن ربطها بالشرق اليوناني البعيد واكتفى بإدخالها في محور روما .... لأن مستوى النخبة المثقفة عندهم أقل من أن تطمع في مثل هذا الأمل العريض". [٢] وقوله: "تأثير اللغة العربية في شكل تفكيرنا كبير. وقد لحظ ذلك الاجتماعي الكبير (اوزفلد شبنجلر) وسجل ملاحظاته في كتابه الشهير (انهيار الغرب) ... فقد لعبت اللغة العربية دورًا اساسيًّا كوسيلة المعارف، وآلة للتفكير خلال المرحلة التاريخية التي ابتدأت حين احتكر العرب على حساب اليونان والرومان طريق الهند ثم انتهت حين خسروها". [٣]

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوروبة) – زيغريد هونكه صـ ٣٦٧: ٣٦٨.

(٢) السابق صـ ١١٣ – ١١٤.

(٣) السابق صـ ١٤١.

وليس معنى ذلك أن الحضارة العربية هي الحضارة الوحيدة في الشرق، ولكن هناك حضارات أخرى كالفرس والروم والسريان والمصريين، والأمم البعيدة كالهنود والصينيين. فقد اهتمت الحضارات الشرقية اهتماما كبيرا وبالغ الأهمية باللغة حيث كانت بعض الأمم الشرقية قد طوّرت من عمرها آلاف السنين. أما العرب فلم يؤثر عنهم أي نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام، ولهذا فهم متأخرون زمنيًّا عن كثير من الأمم، مثل اليونان والرومان التي عرفت دراسات لغوية راسخة قبل الإسلام. فـ "الأصالة – إذن – قدر مشترك بين جميع الحضارات، فكل حضارة أبدعت ونقلت، وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية، ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع، أو تفردت بالنقل، أو خلت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة ... أما اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الإبداع. فأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل: أين هي الحضارة التي أبدعت ولم تنتقل؟ وأين هي الحضارة التي يُقال عن جميع علمائها: إنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولا يمتزج بالعناصر الأخرى؟ فالإغريق نقلوا قبل أن يبدعوا، وعلماؤهم قد نبغوا في آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وصقلية والإسكندرية وفلسطين والشام وتخوم العراق، ولم ينحصر نبوغهم في مكان واحد يقال إنه هو موطن العنصر الخالص الذي لا يشوبه عنصر دخيل. ويصدق هذا على الهند وفارس والصين، كما يصدق على أية أمة من سلالات الأوروبيين المحدثين". [1] وقد اعترف بعض الأوربيين المنصفين بدور العرب المسلمين في الحضارة الأوربية عن طريق نقل كتب التراث فقالوا: "إنهم أصحاب فضل بنقل كنوز الإغريق والرومان إلى أوربة، لقد فعل الحقد الدفين والتعصب الأعمى فعلهما في قصر فضل العرب على دور النقل – كساعي البريد – فقط، فأين هذا من دورهم الحقيقي في حفاظهم على التراث الحضاري للشعوب القديمة من يونان وفرس وهنود وغيرهم، ودراستهم لهذا التراث بعد ترجمته إلى العربية، وعرضه

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، صـ ١٤١.

على مقاييس العقل والتجربة، وتصحيح أخطائه، وإكمال نقصه، وقبول صحيحه، ومتابعة أبحاثه ودراساته حتى أصبحت علوم ذلك التراث الإنساني علوما جديدة متقدمة ومتطورة على أيدي علماء العرب والمسلمين". (١) يقول المؤرخ الأمريكي بريفولت: "ليس ثمة مظهر واحد من مظاهر الحضارة الأوربية إلا ويعود فيه الفضل للمسلمين بصورة قاطعة". (٢) وتقول زيغريد هونكة: "إن الحضارة العربية المبتكرة لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية أو الحضارة الهندية إلا بقدر ما أخذ طاليس وفيثاغوروس من الحضارتين البابلية والمصرية. لقد طور العرب بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق وشكلوه تشكيلا جديدًا، فالعرب في الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي القائم على التجربة.... ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على التجربة إلا عند العرب". (٣) ويقول "دُولنبر" في كتاب "تاريخ الفلك": "لقد منح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتِهم دقة وإبداعًا، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على التجربة". ويستطرد قائلًا: "ومن مباحثنا في أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيرًا، وكان تراث اليونان قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه زمنًا طويلا، ولما آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقّاه ورثتهم (يقصد الأوروبيين حديثًا) وحوّلوه مخلوقًا آخر". (٤)

---

(١) دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية – أ/ هاني المبارك، ود/ شوقي أبو خليل صـ ٣٣، ٣٤.

(٢) ماذا قدم المسلمون للعالم إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية – د/ راغب السرجاني صـ٧٢٥.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوروبة) صـ ٤٠٠، ٤٠١ بتصرف.

(٤) شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية – عماد عجوة صـ ٥٢.

فالفكر العربي بمجالاته المختلفة كان ذاتيًّا ومرتبطًا في أكثره بالقرآن الكريم، ولم يكن تقليدًا أو اكتسابًا من أمم أخرى، بل كان رافدًا مهمًا لغيرها من اللغات، ويشهد لذلك أحد المحدثين الغربيين وهو الباحث اللساني الإنكليزي روبينز (Robins) حيث قال: "إنه من المؤكد أن اللغويين العرب القدامى طوروا نظرتهم الخاصة في نظامهم اللغوي، ولم يطبقوا النظام اللغوي اليوناني على لغتهم أبدا كما هو الحال في النحو اللاتيني". (١) وبناءً على ذلك نقول: إن هذا التراث العربي الإسلامي – وليس تراث اليونان – هو الذي وصل إلى أوربة فساعد على انتقالها من جهالة عصورها الوسطى المظلمة إلى ما يعرف بعصر النهضة، فعرفت التحرر الفكري الذي كان من أهم ما يميز الحضارة العربية الإسلامية، وهو ما كانت تفتقده أوربة في عصورها الوسطى". (٢)

ومن هنا نقول: إن أصالة الدراسات العربية خاصة، وعدم ارتباطها بأيّ من الحضارات السابقة لها في أصح الأقوال – حتى وإن تقاطعت معها في بعض الآراء، وهذا أمر طبعي؛ لأن مادة الدراسة هي اللغة والقضايا اللغوية تتشابه في كثير من الأحيان في مختلف اللغات وهو ما أسس في العصر الحديث لوجود علم اللغة العام– هو ما يحفظ الهوية العربية لهذه الدراسات ويعطيها قيمتها الحضارية، وهذا لا يعني بالضرورة أنها تختلف تماما عما منذ قرون بعيدة في النظر إلى اللغة عند الأمم الأخرى – لا سيما عند الهنود واليونانيين القدماء – فقد تلتقي معها في بعض القضايا وحتى في المنهجية، وفلسفة العلم، لكن ما يجعلها أصيلة هو تميزها في الطرح والإجراء والطابع العلمي الذي تتميز به، وارتباطها بالقرآن الكريم، واعتماد علمائنا القدامى على السماع المباشر من أفواه العرب الخلص في زمان الفصاحة والسليقة اللغوية وهو ما يسمى بعصور الاحتجاج وهي التي حفظت العربية من كل دخيل ومولد. ولكن من الثابت يقيناً أن الغرب لم تكن لهم حضارة

(١) نظرية تحليل الأخطاء في التراث العربي – د/ جاسم علي جاسم صـ ٢٠٢

(٢) دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية صـ ٣٥.

تذكر آنذاك حتى القرن الثالث عشر الميلادي. ومعلوم أن الجامعة الأوربية كانت عاملًا مهمًّا في ذيوع اللغة العربية التي أصبحت في العصور الوسطى – (تُطلق على الفترة الزمنية في التاريخ الأوروبي التي امتّدت من القرن الخامس حتّى القرن الخامس عشر الميلادي. حيث بدأت بانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية واستمرّت حتى عصر النهضة والاستكشاف) – لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون، بل أصبحت لغة دولية للحضارة. ففي عام ١٢٠٧م، لوحظ وجود معهد في جنوب أوربا لتعليم اللغة العربية. ثم نظم المجمع المسيحي العالمي بعد ذلك تعليمها في أوربا، وذلك بإحداث كراسي في كبريات الجامعات الغربية. وفي القرن السابع عشر اهتمت أوربا الشمالية والشرقية اهتمامًا خاصًا بتدريس اللغة الغربية ونشرها. ففي ١٦٣٦ قررت حكومة السويد تعليم العربية في بلادها. ومنذ ذلك الحين انصرفت السويد إلى طبع المصنفات الإسلامية ونشرها، وبدأت روسيا تعنى بالدراسات الشرقية والعربية خاصة في عهد بطرس الأكبر الذي وجه إلى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين. وفي عام ١٧٦٩ قررت الملكة كاترينا إجبارية اللغة العربية. وفي عام ١٨١٦ أحدث قسم اللغات السامية في جامعة بتروكَراد. وهكذا يمكن القول بأن اللغة العربية انتشرت في العالم من قبل، وذيوعها في بلاد المشرق وفي أفريقيا قد تم في كنف الحضارة الإسلامية.

أما عن تأثر العرب بالحضارة الغربية في العصر الحديث – نتيجة الغزو العسكري، والغزو الفكري، والبعثات الخارجية وخاصة بعد عودة اللسانيين المصريين من الجامعات الأوروبية وهو الأمر الذي يعد البداية الحقيقية في كتابة تاريخ اللسانيات العربية الحديثة – فهذا أمر مشاهد وملموس ولا ينكره أحد، فالعالم العربي الحديث يتقدم في الاستفادة من حضارة الغرب؛ وذلك لأن "الفكر اللساني الغربي يعتبر أهمّ ما أفرزته الحضارة اللغوية الحديثة في ظلّ عالَم مسارع إلى اكتشاف النظريات المعرفية وصبغها بالطابع العلمي. فقد عرفت القارة الأوروبية نهضة علمية شملت كافة العلوم كعلوم الطبيعة والتقنية والإنسان والمجتمع، وقد

سعى علماء اللغة إلى تعميق البحث في علوم اللغات واستخلاص منها ما يتلاءم والطابع المعرفي الحديث رغبة منهم في قراءة مكاسب اللغة قراءة منهجية تمنحها سمة الدقة والثبت القاعدي؛ وهذا ما نلتمسه في علم اللسانيات".[١] يقول العقاد مؤكدا ذلك: "أما عن أثر الحضارة الأوروبية في العالم العربي الحديث فهو من مسائل العيان التي لا تُلجِئُنا إلى تاريخ وراء ما نذكره ونشاهده يومًا بعد يوم. إن العالم العربي يتقدم في الاستفادة من حضارة الغرب، ويخرج من محنة الخضوع السياسي للدول الغربية بكيان مستقل، وحياة ثقافية تُنسب إليه، وتوشك أن تسلك به مسلك المناظرة لأمم الغرب في ميادين الأدب والفن، ومسلك الاقتداء الناجح في ميادين العلم والصناعة ... ومن الآمال الصادقة – لا من الأماني الحالمة – أن تكون مهمة الكاتب عن أثر العرب في الحضارة الأوروبية وأثر الأوروبيين في حضارة العرب المحدثين مهمة الموازنة بين كفتين متقابلتين، قبل نهاية القرن العشرين". [٢]

وإذا كان الأمر كذلك فهل تأثرت الدراسات اللغوية عند الغرب بالدراسات اللغوية عند العرب؟ وما مدى هذا التأثر؟ وهل تأثرت الدراسات اللغوية عند العرب بالدراسات اللغوية عند الغرب قديما وحديثا؟ وما مدى هذا التأثر؟

أما كيف تم هذا التأثير والتأثر بين العرب وبين الغرب في الدراسات اللغوية خاصة؟ فكان عبر عدة طرق أو آليات تمثل كل منها في عدد من المظاهر، وهذه الآليات هي: بلاد الأندلس، والترجمة، والحروب الصليبية، وشهادات بعض المنصف من الغرب. ومنها الاستشراق لكن سنخصه بدراسة مستقلة؛ لتشعبه وطول الحديث فيه. وفي المباحث التالية تفصيل لهذه الآليات والمظاهر.

---

(١) الفكر اللساني الغربيّ مقوماته وخصائصه قراءة وصفيّة تحليليّة – أ/ عبد الرحيم البار صـ ٢٠٨.

(٢) ينظر: أثر العرب في الحضارة الأوربية – عباس محمود العقاد صـ ٨، ٩،

المبحث الأول

بلاد الأندلس وصقلية ودورهما

في نقل الدراسات اللغوية العربية إلى الغرب ومدى التأثر بها

أ – بلاد الأندلس:

كانت إسبانيا موطن الحضارة الإسلامية في أوربا، فقد بقيت الأندلس وهي جزء من القارة الأوربية مدة ثمانية قرون (٩٢ه – ٨٩٨ه/ ٧١١م – ١٤٩٢م أي فيما بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلاديين) ميدان إشعاع حضاري خلال وجود العرب المسلمين فيها وحتى أثناء ضعفهم السياسي وظهور دول ممالك الطوائف وذلك بواسطة جامعاتها ومدارسها ومكتباتها ومصانعها وقصورها وحدائقها وعلمائها وأدبائها، حتى غدت محط أنظار الأوربيين، وكانت على صلات وثيقة ومستمرة مع شمال إسبانيا وبلدان أوربة ... ومن هنا وجدت الحضارة العربية الأندلسية طريقها إلى الغرب. وقد حمل مشعل الحضارة العربية عبر الأندلس ألوف من الأسرى الأوربيين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرها من مراكز الثقافة الأندلسية.(١) فالأندلس قد نشرت هذه الحضارة في جميع أرجاء أوروبا، وذلك عن طريق التجارة والجامعات والأدب، وكان كثير من العلماء العرب في إسبانيا يقرأون اللاتينية ويكتبونها، كما كان الإسبان المسيحيون أو (المستعربون) الذين يعيشون تحت الحكم العربي للأندلس يعرفون العربية.(٢) وإنما سميت بأندلس بن طوبالٍ بن يافثٍ بن نوحٍ؛ لأنّه نزلها، كما أن أخاه سبت بن يافثٍ نزل العدوة المقابلة لها، وإليه تنسب سبتة. قال: وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي، لأنّهم إمّا عربٌ أو متعربون. وقال ابن غالبٍ: إنّه أندلس بن يافثٍ،

---

(١) دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية صـ ٥٢، وشمس العرب تسطع على الغرب صـ ٥٣١، ٥٣٢

(٢) ملامح من تاريخ اللغة العربية – أحمد نصيف الجنابي صـ ٤١.

والله تعالى أعلم. [١] سماها بذلك المسلمون، وكانت تسمى في أقدم عصورها باسم إيبريا نسبة إلى الإيبيريين الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر، ثم عرفت باسم إسبانيا وهذا الاسم أطلقه الرومان عليها حين حكموها. [٢]

وإننا لا نهدف في هذا المبحث إلى الحديث عن الأندلس وصقلية كحضارة إسلامية بصفة عامة لها تأثير عميق على الغرب في جميع المجالات، وإنما نهدف إلى بيان وتوضيح الدور الحضاري للأندلس وما قدمته للحضارة الغربية في الدراسات العربية عامة واللغوية خاصة، رغم محاولات طمس هذا الدور للحضارة العربية الإسلامية من قبَل بعض العلماء الأوروبيين لأسباب عنصرية أو دينية، أو لأسبابٍ تتعلق بمجرد الجهل بما قدمته الحضارة العربية الإسلامية في مسيرة الحضارة الإنسانية الشاملة.

فبالرغم من أن الحضارة في الأندلس هي امتداد للحضارة الإسلامية، إلا أن هذا البلد شهد تميزًا كبيرًا في ازدهار العلوم والمعارف وانتعاش الفكر والأدب وبفضل النزعة العلمية التي اتصف بها، فالأندلس بلغت حدًّا عاليًا من العلم والمعرفة في رفعة المستوى وعمق الأصول وسعة الشمول بين النساء والرجال، ودون شك فإن مثل هذا الجو العلمي الذي عاشه بلد الأندلس متمتعا بالخير والمعرفة الحقة ينتج شمولا في طلب العلم وكثرة من العلماء ووفرة في المكتبات واهتمامًا باقتناء الكتب وشغفًا للاعتناء بالعلم وسعيًا في طلبه. وقد وصلت الحضارة الأندلسية إلى ذروتها سواء في عصر الخلافة أو فترة ملوك الطوائف – (هي فترة تاريخية في الأندلس؛ بدأت عام ٤٢٢هـ، عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية في الأندلس، ما شجع أمراء الأندلس ببناء دويلات منفصلة، وتأسيس أسرة حاكمة من أهله وذويه) – وقد كان التنافس على استقطاب العلماء

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ١/١٢٥.

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – د/ أحمد هيكل صـ ١٣.

والأدباء وجمعهم في قصور الأمراء هو ميزة ذلك العصر، فقد كانت قصورهم منتديات زاهرة ومجامع حقه للعلوم والآداب والفنون. فقد امتازت حضارة العرب في الأندلس بميلها الشديد إلى العناية بالآداب والعلوم والفنون، فأنشأوا المدارس والمكتبات في كل ناحية وترجموا الكتب المختلفة، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية والطبية وغيرها من العلوم الأخرى بنجاح.

الحركة العلمية اللغوية العربية في الأندلس ودورها في الحضارة الغربية:

ارتقت الحضارة الإسلامية في تلك المنطقة من دنيا الإسلام ارتقاءً رائعًا ونافست الحضارة الإسلامية فيها حضارة الإسلام في المشرق، وبلغ من عظمة قُرْطُبَة وازدهارها وخاصة إبان العهد الأموي في الأندلس، إنها كانت أعظم مدينة في أوروبا كلها وتأتي على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد إبان عزهما. (١) وقد بلغت قُرْطُبَة أوجًا لم تصل إليه مدينة في أوروبا قبل القرن الثامن عشر. (٢) وكانت قرطبة – بحكم مركزها – تجتذب إليها أكثر المشتغلين بالعلوم اللغوية، فهي مستقر الغازي بن قيس، وعبد الله ابنه، وعبد الملك بن حبيب، ومحمد إسماعيل الحكيم، وغيرهم كثيرين، وقد اجتذبت إليها كثيرا من علماء اللغة في المدن الأندلسية الأخرى مثل جودي النحوي وهو موزوري الأصل، والخشني وهو جيّانيّ الأصل، ولكن بعض علماء اللغة آثروا بلادًا أخرى أندلسية لم تجتذبهم قرطبة إليها... وكان حملة اللغة والنحو في الأندلس – في أغلب الأحيان – تلامذة الطبقة الأولى من اللغويين والنحويين المشارقة وقد نشروا منذ البداية في بلدهم أصول المدرستين النحويتين اللغويتين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، إلا أن تلامذة البصرة كانوا ظاهرين في الأندلس على نظرائهم، كما أصبح كتاب سيبويه لديهم هو غاية المتعلقين بالدراسات النحوية. (٣) وإذا كان هؤلاء قد رحلوا إلى المشرق

---

(١) أنظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية – ليوبولدو تورتيس بلباس ٢/ ١٥.

(٢) قُرْطُبَة درة مدن أوروبا في العصور الوسطى – حسين مؤنس صـ ٨٥.

(٣) ينظر: الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف – البير حبيب مطلق– صـ ٣١: ٣٥ بتصرف.

ونهلوا من علومه اللغوية المتمثلة في المدرستين البصرية والكوفية فإن بعض المشارقة من علماء اللغة والنحو قد هاجر إلى بلاد الأندلس ومنهم أبو جعفر أحمد محمد بن هارون البغدادي، والعجلي، وأبو محمد الأعرابي وغيرهم، وكان لهذه الهجرة من الأندلس إلى الشرق أو العكس أثر بين وواضح في الحركة اللغوية في بلاد الأندلس لا بما جلبوه من علم فحسب، ولكن أيضا بما نقلوه من الكتب، ومن أكثر الكتب التي لقيت قبولا عندهم كتاب سيبويه، وكتاب العين للخليل، وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام، ومعاني القرآن لابن قتيبة ....". (١) وليس هذا فحسب، بل كان للأندلسيين أنفسهم إبداعاتهم المتميزة فيما ألفوه من الكتب إذا كان الأندلسيون قد استمدوا من الشرق أول أمرهم العقيدة، ثم أخذوا يتأثرون خطى المشرق فيما أبدعته القرائح فيه من ثمرات الفكر والأدب، فإن المجتمع الأندلسي لم يلبث أن تلمس طريقه ليستكمل إبداع الحضارة في قطره، فألف رجاله الكتب وصنفوا المدونات ... وبدا أنهم كلما انتابهم الإحساس بالخطر، تهب عليهم رياحه من حدود الشمال، أكبوا على التأليف والتصنيف والتدوين، يملي عليهم ذلك تأكيد الذات وحب البقاء. وقد كان غزيرًا ومتنوعًا ذلك التراث المكتوب الذي تركوه بعد كل ما ضاع منه عند تساقط الحواضر الإسلامية واحدة بعد أخرى". (٢)

فالأندلس عرفت إذن نهضة كبيرة في الحركة العلمية وخاصة اللغوية منها مع بداية القرن الثالث الهجري، وانتقال العلوم من المشرق العربي إليها، وذلك من خلال الرحلات من وإلى الأندلس والتي كانت فريضة الحج المساهم الأول فيها، فكان طلاب العلم في رحلتهم إلى بيت الله المحرم ذهابًا أو إيابًا يأخذون من علماء الحجاز مرورًا ببغداد ومصر، فيتزودون منهم سائر العلوم الدينية والدنيوية، وبعد دخول مختلف العلوم لبلاد الأندلس أصبحت الرحلات العلمية واجبةً على طلاب

(١) ينظر التفصيل في: الحركة اللغوية في الأندلس– صـ ٣٥: ٥٢.

(٢) ينظر: فضل العرب على الأندلس – خوان فيرنيت صـ ١٤– (مقدمة فاضل السباعي على الكتاب).

العلم فكأنها أصبحت فريضة ثقافية يؤدونها، فعلى طالب العلم الراغب في تحصيل المعرفة أن يرتحل إلى ذلك الجانب الآخر الذي تطورت فيه العلوم، فكان منهم من يعود لوطنه ومنهم من يطيب له البقاء في بلاد المشرق، وهذا ناتجٌ عن ولعهم الشديد بالشرقي وهيمنته العلمية كما يذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته، فكان ذلك الاهتمام الكبير بكل ما هو وافد من المشرق، وكان التتلمذ على يد العلماء المشارقة هو مبلغ ومطمح الأندلسيين والمغاربة، فكثُر الرحالة إلى المشرق وازداد اهتمامهم بطلب العلم من هناك، فالمقري يحصي 307 راحلا أندلسيًّا إلى المشرق، وهذه الرحلات كما ذكرنا كانت بسبب التفوق العلمي الذي عرفه المشرق العربي. وليست هذه الرحلات وحدها من أثرى الحركة العلمية اللغوية في الأندلس، بل وُجدت عوامل وأسباب أخرى كانتقال كبرى المؤلفات اللغوية للفراء والكسائي مع التجار الذين يسافرون نحو المشرق لقضاء مختلف حاجياتهم، وكذلك حرص الحكام الأندلسيين على الرقي بالعلم وتطويره من خلال تحفيز العلماء والمؤلفين وإغداقهم بالمال والهدايا، مما جعل الحركة اللغوية وخاصة في القرن الرابع الهجري تزداد تطورًا سواءً بالتأليف أم بالتعليم، ومن بين الحكام الذين كان لهم كبير الأثر في ازدهار الحركة العلمية بالأندلس الحكَم المستنصر (ت 366 ه) الذي يعد عالمًا فذًا في عصره... واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده إلا ما يُذكر عن الناصر العباس المستضيء، ففي عهده انتشر الاهتمام بالعلوم وبالكتب وارتحل العلماء لطلب العلم وجلب المؤلفات من المشرق والعمل على تدارسها وتعليمها لطلاب الأندلس، وكذا الاستفادة منها في التأليف وحتى التأليف على منوالها. فكان المستنصر الراعي الأول لهذه الحركة والقائم عليها من خلال تطبيقه لاستراتيجية دعم العلماء والمؤلفين عامةً واللغويين منهم خاصة، وحتى دعوته لعلماء من خارج الأندلس من أجل الأخذ عنهم ومثاله دعوته لأبي علي القالي (ت 356 ه) الذي دخل الأندلس سنة (330ه -941م) ملبيًا هذه الدعوة وجالبًا معه أحمالًا من الكتب العربية القديمة، من أجل تعليمها لطلبة العلم هناك. فقد

كان تأثير اللغويين المشارقة واضحًا في علماء الأندلس وفي مؤلفاتهم العلمية، وطلبهم للعلم من المشرق وجمع مؤلفاته ولقائهم والتتلمذ على يد علمائه مهما بلغ بُعد المسافة دليل آخر على رغبة الأندلسيين وحبهم للعلم وطلبه، فنجد مثلا أبا موسى الهواري صنفه الزبيدي في طبقاته ضمن الطبقة الأولى من النحويين واللغويين الأندلسيين، أنّه في أول خلافة عبد الرحمن معاوية – ﷺ – فلقي مالكًا ونظراءه من الأئمة، ولقي الأصمعي"، ومثله جودي النحوي(ت 198 ه) الذي رحل إلى المشرق، وأبا زيد الأنصاري ... فأمام هذا الزخم من الكتب اللغوية حدث التأثير المشرقي في علماء الأندلس، وهو الحال كذلك في المغرب العربي فقد تأثر هناك النحويون واللغويون أيما تأثر بعلماء المشرق وبكتبهم عبر مختلف المراحل.(١)

وقد عقد شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: ١٠٤١هـ) في كتابه المسمى بـ (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) بابًا هو الباب السادس وقد عنونه بـ (في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، المهتدين في قصدهم) وذكر فيه كثيرًا من علماء اللغة الداخلين للأندلس من المشرق ومنهم أبو علي القالي، صاحب الأمالي والنوادر الذي وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، وأقام في قرطبة .... ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أيضا: أبو العلاء صاعد بن الحسين ابن عيسى البغدادي، اللغوي.... وذكر علماء كثيرين غيرهما. (٢)

فبقدوم القالي إلى الأندلس سنة ٣٤٠ه تأسست أول مدرسة لغوية بالأندلس إذ ألف كثيرًا في الدراسات اللغوية وأملى على طلبته الأندلسيين كتاب (الأمالي)، وفي

(١) ينظر: مجلة إشكالات في اللغة والأدب – المركز الجامعي لتامنغست/ الجزائر – مجلد: (٨) عدد: (٣) السنة ٢٠١٩ رقم العدد التسلسلي ١٨ صـ ٣٩٤.

(٢) ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٣/ ٧٢ وما بعدها بتصرف، والأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة صـ ١٢٣ وما بعدها.

هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين في الدراسات اللغوية مثل أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩ه) الذي عمل كتاب (مختصر العين) وألف كتاب (طبقات النحويين)، وكتاب (لحن العامة)، وكتاب (الواضح في العربية)، وكتاب (الأبنية في النحو) .... ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية في فترة الخلافة أيضا أبو بكر بن القوطية الذي ألف كتاب (تصاريف الأفعال)، وكتاب (المقصور والممدود). (١) ومنهم أيضا أبو الحسن بن عصفور الإشبيلي، وأبو علي الشلوبيني، وابن مالك، وأبو الحسن بن سيدة الأندلسي، وابن مكي الصقلي، وابن السيد البطليوسي، وأبو حيان الغرناطي الأندلسي وغيرهم.

وكذلك انتشرت أيضًا الحلقات التعليمية في أغلب جوامع الأندلس وبشكل خاص في المدن الرئيسية كـ قُرْطُبَة، وطُلَيطِلَةُ، وإشبِيلِيّة، ولقد وجد في كل جامع مكتبة غنية بمختلف فروع المعرفة الإنسانية، فقد كان للحلقات التي تعقد في جامع طُلَيطِلَةُ شهرتها وأهميتها وجذبت إليها الطلاب المسلمين النصارى على السواء حتى لقد كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوربا بما فيها إنجلترا وأسكوتلندا.

أما عن دور بلاد الأندلس في نقل التراث العربي عامة واللغوي خاصة إلى الغرب عن طريق تعلم أبناء الغرب اللغة العربية من ناحية، والترجمة المباشرة أو غير المباشرة للعلوم اللغوية العربية وغيرها إلى اللاتينية من نحو ومعجم ونشر للمخطوطات تارة أخرى حيث ازدهرت حركة الترجمة ببلاد الأندلس نتيجة لعدة عوامل عرفتها أوربا بعد تحررها من سيطرة الكنيسة ولعل أهمها توافد أبناء أوربا بكثرة على بلاد الأندلس؛ لينهلوا من مختلف المعارف الإسلامية الثمينة ومن هنا بات لزاما على أوربا أن تنقل هذا التراث الفكري الغزير إلى اللسان الأوربي. وكذا عن طريق الاستشراق والحروب الصليبية اللذان انطلقا من بلاد الأندلس لما تتميز

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة صـ ١٨، وتاريخ الفكر الأندلسي- آنجل جنثالث بالنثيا صـ ١٨٥ وما بعدها.

به من حضارة عربية إسلامية كانت هي المنطلق الرئيس للحضارة الغربية تارة ثالثة. وكان لهذه العلوم العربية التي شاعت وانتشرت وازدهرت في بلاد الأندلس دورا رئيسا في النهضة العلمية الأوربية: فقد كانت بلاد الأندلس في قمة الازدهار الفكري والحضاري، في الوقت الذي كانت أوربا المسيحية تعاني فيه تخلفاً وتراجعًا فكريًّا حيث كانت مكبلة بقيود الكنيسة المتمثلة في رجال الدين التي حكمت بسلطان الدين المتعصب، فحالت دون تطور المجتمع الأوربي وازدهاره وجعلت من العلم والإبداع خطيئة لا تغتفر، وقد كان الرهبان والقساوسة الفئة الأكثر تعطيلا للفكر وتقييدًا للحرية حتى تحكم سيطرتها على أوربا المسيحية بأسرها، وقد نجحت في ذلك لعهود متوالية حتى أدركتها الحضارة العربية واستطاعت أن تنتشلها من ظلام الجهل الذي كان مطبقا عليها. فبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية أواخر القرن الخامس الميلادي، ساد في أوربا انحطاط علمي وفكري وتخلف حضاري، وعندما ارتوت بلاد الأندلس من معين الحضارة الإسلامية، وأخرجت إلى العالم آنذاك العديد من العلماء والأدباء المبدعين والمتميزين وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين "فقد كان العالم وإن كان متخصصًا في العلوم الطبيعة بصيرًا وذا شهرة عظيمة في النحو واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار كأبي عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمينة، والوليد هشام". (١) وقد قدر لهذه الحضارة أن تشرق على أمة أخرى، فوصل بعض نورها إلى الدول النصرانية المجاورة أو أوربا المسيحية لتستفيق من جهلها وتخلفها وتدرك عظمة التراث الإسلامي وأهميته. "فقد كانت أوروبا – إذن – تتلمذ على أيدي العرب، وكانت تتعلم لغتهم، وتترجم علمهم، وتنشئ المدارس على غرار مدارسهم، وتضع لها المناهج الدراسية المنقولة عن المناهج العربية، ومن ثم لم يكن للعلماء الأوربيين في

(١) ينظر: بلاغة العرب في الأندلس – أ/ أحمد ضيف صـ ١٢ بتصرف.

تلك الحقبة إنتاج علمي خاص؛ لاعتمادها كليًا على التراث العربي، وكل ما ظهر من مؤلفات لاتينية لا تعدو أن تكون ترجمات لمؤلفات إسلاميه أو نقلًا عنها". (١)

فالعلم عند العرب كان نهر الحضارة الذي ينهمر في قرطبة يحفظ جوهر الفكر القديم وينقله إلى العالم الجديد. وهو الأمر الذي جعل أهل أوربا يتطلعون للوقوف على هذه النهضة الحضارية، التي وصلت أخبارها إليهم وكان أسبق الأوروبيين إلى ذلك الملك فيليب البافاري؛ حيث بعث إلى الأندلس يرجو الأمير الأموي هشام الأول هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي حكم الأندلس في الفترة ١٧٢-١٨٠هـ / ٧٨٩ – ٧٩٦ م، يرجوه أن يسمح له بإيفاد بعثة إلى قُرْطُبَة لدراسة أنظمة الأندلس وثقافتها، ومشاهدة أوجه النشاط بها، فقبل الأمير رجاءه وأرسل الملك الجرماني وفدًا إلى الأندلس برئاسة وزيره الأول "ويلميبن" الذي أطلق عليه الأندلسيون اسم "وليم الأمين"؛ لأنه تحرى الأمانة في نقل ما رأوه من مظاهر نهضة بلادهم إلى الملك. وقد أشار الوزير على الملك بالاستمرار في إرسال البعثات العلمية لاقتباس ما يفيد البلاد من فنون الحضارة العربية. (٢) وقد توالت البعثات على الأندلس بعد ذلك، وفي أوائل القرن الخامس الهجري أرسل جورج الثاني George II ملك إنجلترا ابنة أخيه الأميرة "دوبانت" Dopant، على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة، من بنات الأمراء والأعيان، إلى إشبِيلِيّة بمرافقة النبيل "سفليك "رئيس موظفي القصر الملكي، وأرسل معه كتابًا إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس جاء فيه بعد الديباجة: "وقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم، والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل؛ لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد أرسلنا

(١) اعرف وطنك أيها العربي قُرْطُبَة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى – حسين مؤنس – مجلة العربي، العدد (٩٥) أكتوبر ١٩٦٦م.

(٢) ينظر: أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية – جاد أحمد رمضان صـ ٢٣٣: ٢٤٩.

ابنة شقيقتنا الأميرة "دوبانت" على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز؛ لتتشرف بلثم أهداب العرش؛ والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم؛ وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع: جورج". (١) وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس كانت توفد إلى معاهد غَرْناطة، وإشبِيليّة، وغيرهما بعثات من فرنسا، وإيطاليا، والأراضي الواطئة؛ لتنهل من الحضارة العربية، وكان طلاب هذه البعثات يعجبون بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها حتى أن بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء بالأندلس ولم يعد إلى بلاده. (٢) فأرسلت أوربا – إذن – بعثاتها إلى الأندلس التي كانت بحق كعبة العلم يحج إليها أذكياء الطلاب من فرنسا وإيطاليا، وبذلك صبحت بلاد الأندلس مركز إشعاع علمي استقطب جميع طلبة العلم من أبناء أوربا المسيحية.

وقد كان لانتشار اللغة العربية في الأندلس دور رئيس في هذه النهضة الأوربية التي تأثرت بعلوم العرب ومعارفهم في شتى المجالات العلمية، فكما انتشر الإسلام بسرعة فائقة في شبه الجزيرة العربية، انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق واسع بين سكان هذه البلاد. وقد كان لهؤلاء العرب الوافدين على الأندلس في شكل موجات كبيرة أثر كبير في نشر اللغة العربية في شبه الجزيرة. ولا شك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم؛ نظرًا لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق، ولسان الممتازين ذوي السلطان. "فلم يمضِ على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى؛ لأن هؤلاء زهدوا في اللغة اللاتينية ونشأ لهم غرام بالعربية، فأخذوا يتقنون آدابها، ويتغنون

(١) ينظر: أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية صـ ٢٣٣: ٢٤٩.

(٢) السابق نفسه.

بأشعارها، ويكتبون بها كأبنائها، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها، وأصبح أهل البلاد يتكلمون بالإسبانية والبرتقالية والعربية على السواء، ثم أخذوا لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية، وقد وجد من عقودهم نحو ألفي صك كتبها المستعربة من الوطنيين الأصليين باللغة العربية". (١) ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية في عصر مبكر بين المسيحيين أنفسهم، تلك الشكوى التي أطلقها أحد قساوستهم، واسمه "ألفرو القرطبي" حيث يقول: "إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلًا صحيحا. وأين تجد الآن واحدًا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين، وآثار الأنبياء والرسل؟ يا للحسرة!! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالًا طائلة في جمع كتبها، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقية جديرة بالإعجاب. فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد نسي النصارى حتى لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منهم واحدًا يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتابًا سليمًا من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنًا وجمالًا. وهكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها في شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية. وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد، كما صار الإسلام دينها الرسمي. (٢) يقول المستشرق رينان في كتابه (تاريخ اللغات السامية): "إن انتشار اللغة العربية ليعتبر من أغرب ما وقع في تاريخ البشر كما يعتبر من أصعب

(١) الإسلام والحضارة العربية – محمد كرد علي صـ ١٦٥.

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة صـ ٤٠.

الأمور التي استعصى حلها، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء فبدت فجأة على غاية الكمال سلسلة أية سلاسة غنية أي غني، كاملة بحيث لا يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنى تعديل مهم فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولا أدري هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض قبل أن تدخل في أدوار مختلفة ..... ولم يمض أكثر من خمسين عاما على فتح الأندلس حتى اضطر رجال الكنيسة إلى أن يترجموا صلواتهم إلى العربية حتى تكون مفهومة لدى النصارى". (١)

وقد كان شيوع التعليم بالعربية سببًا لإهمال اللاتينية والإغريقية، ويروي لنا "دوزي" في كتابه عن الإسلام رسالة ذلك الكاتب الإسباني "الفارو" الذي كان يأسى أشد الأسى لإهمال لغة اللاتين والإغريق، والإقبال على لغة المسلمين، فيقول: "إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي الأندلسي؛ فاحتقروا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها".(٢)

وبفضل هذا التواصل بين العرب والغرب في بلاد الأندلس كان للعربية ابتداءً من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي تأثير كبير في اللغات الأوروبية، استمر طيلة وجودها في الطرف الجنوبي من أوربا، في الأندلس وصقلية وما حولهما من الجزر حتى آخر القرن الخامس عشر. وإذا كان وجود العربية قد تقلص في تلك البلاد، فإنه قد ترك بصماته على ألسنة أهلها المتكلمين بالإسبانية أو البرتغالية أو غيرهما من اللغات المحلية حتى الآن. وهذا ما شهد به أحد الباحثين الإسبانيين حيث قال: "يتعذر علينا – نحن الإسبانيين – إتمام أبحاث تاريخنا، والنظر في آداب لغتنا، إن لم يستعن مؤرخونا ونقادنا في مباحثهم بلغة المعتمد، وأبي البقاء، أو يستمدوا من المخطوطات العربية المبعثرة في أنحاء العالم، وإنك لتجد في جميع الآثار التي خلفها كتَّابنا الأقدمون مسحة انتقادية هي أثر المعارف العربية الباسطة

(١) مجلة العربي عدد (١٤٥) السنة ١٩٧٠م صـ ٦٧.

(٢) أثر العرب في الحضارة الأوروبية – عباس العقاد صـ ٥٥.

نورها على اللغات الحديثة منذ أنشأ "الدون خوان مانويل" كتابه المسمى (كونده لوكانور) إلى أن ألَّف "روخاس" كتابه (كالستينا) ولا نغفل عن التنويه بمؤلفي (اللمح) وسواهم من كبار الكتَّاب والمنشئين، وليست جميع القصائد المجموعة في كتب الأغاني الإسبانية لمختلف الشعراء سوى انتحال ما في الدواوين الشرقية من شعر، فإنك ترى ناظميها يرافقون في أناشيدهم الإيقاع المتكرر في ألحان الرباب. ليس في طاقتنا معاشر الأندلسيين المؤمنين بالنصرانية أن نجحد دين أسلافنا المسلمين، فلئن كان الأول دين سرائرنا، فالثاني ما برح نتاج خيالنا القومي المزدان ببدائع التصوُّر، وإننا على رغم لباسنا الحديث، وإهمالنا لغة أسلافنا العرب، ما نزال أحفاد أولئك البدو ... إن قوميتنا الغربية هي العرض الظاهر، أما القومية الشرقية فهي حقيقتنا الخالدة، وما كانت عامة ثوراتنا الأدبية القديمة والحديثة في الغالب غير أثر الروح العربي الذي يظفر من سويداء قلوبنا محتجّاً ناقمًا". (١)

وأما عن تأثير العربية في الإسبانية والبرتغالية، فنجد الأب جان دي صوصة (ت ١٨٤٢ م) قد صنف "معجم الألفاظ الإسبانية البرتغالية المشتقة من العربية" وحوى هذا المعجم حوالي ثمانية عشر ألف كلمة مشتقة من أصل عربي، في اللغة الإسبانية واليونانية. (٢) أما نسبة هذا التأثير، فقد ذكر بعض الباحثين أن المفردات العربية التي دخلت إلى الإسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الإسباني، بينما دخلت إلى البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية. وقد صنف الأب ساسا باتيستا الذي ولد في دمشق من أبوين عربيين قاموسًا عام ١٧٨٩م جمع فيه الكلمات التي اقتبستها البرتغال من العربية. وهذا القاموس يقع في مائة وستين صحيفة. كما ألف دوزي، وأنجلمان قاموسًا للكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية. وتوجد في مكتبة الإسكوريال معاجم عربية يونانية وعربية لاتينية وعربية إسبانية صنفها

(١) الإسلام والحضارة العربية صـ ٢١٥، ٢١٦ بتصرف.

(٢) تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات – ليلى صديق صـ ١١٠. نقلا عن: أم اللغات – سعيد أحمد بيومي ص ١٦٤ و٣٧٩

علماء مسلمون. وقد كان للمغرب حظه في هذا التأثير اللغوي على الأندلس التي استمر حكمه لها نحوًا من ثلاثة قرون. أما البرتغاليون الذين عاشوا في المغرب، فقد ذكر "شافروبيير" أن الجالية التي كانت بالمغرب في القرن السادس عشر كانت تتراسل بعربية حشوها تعابير مغربية وتكتب مراسلاتها بالحروف العربية.

كذا اهتم بعض الباحثين الأوروبيين بدراسة الكلمات العربية الدخيلة في المعجمات وتتبع تاريخ دخولها فيها، فالكاتب الفرنسي (بيير جيرو) أقر بتأثير اللغة العربية في اللغة الفرنسية وقدم قائمة من مائتين وثمانين كلمة دخلت من العربية إلى الفرنسية في عصور مختلفة من التاريخ. وعني فريق آخر بدراسة هذه الكلمات العربية الدخيلة بإظهار الوسائل والطرق التي دخلت من خلالها إلى فرنسا ولغتها مؤكدا على توثيق تلك المعلومات وإسنادها بالدليل العلمي المتوفر، وقدم قائمة حوت أكثر من ستمائة كلمة. كما نجد أبحاثا أخرى ومقالات نشرت في هذا الصدد في غير فرنسا، كالرومانية والإنجليزية. (١)

ولعل من مظاهر هذه النهضة العلمية آلاف المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما إلى الآن. وبصفة عامة كانت هناك تأثيرات عربية واضحة في العقلية الأوروبية تمثلت في شعر المناجاة، والشعر الشعبي، والحكم والأمثال كما هو واضح في "الكوميديا الإلهية". (٢) للشاعر الفلورنسي الشهير دانتي. وما زال موضوع اطلاع دانتي على مصادر عربية علمية مثل رسالة الغفران للمعري أو أعمال ابن عربي الصوفية والثيوصوفية فكرة جذابة تأثر الكثيرين. (٣)

فالأندلس هي القطر الوحيد الذي يُقال فيه على التحقيق: إنه لم يعرف له عصرًا ذهبيًّا في تاريخه كله غير العصر الذهبي الذي رآه في أيام الدولة العربية الزاهرة .... ففي عصر الأندلس الذهبي كانت المدن الأندلسية أعمر المدن في القارة الأوروبية من أقصاها إلى أقصاها، وكان في قرطبة وحدها دكان نسخ واحد

(١) تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات – ليلى صديق، صـ ١١٠، ١١١ بتصرف.
(٢) التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى– ديونيسيوس آجيوس، ريتشارد هيتشكوك صـ٩٣.
(٣) ينظر: تراث الإسلام – جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث ١/ ١١٧.

يستخدم مائة وسبعين جارية في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة، وكان في قصر الخليفة أربعمائة ألف كتاب، وكان سادات أوروبا يفاخرون بما يقتنونه من منسوخاتها، .... وإلى قرطبة وزميلاتها غرناطة وأشبيلية وطليطلة ومرسية ومالقة كانت تتجه وفود العواهل الأوروبيين في طلب الأدوية أو التحف، أو أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى... ولا نعرف شهادة لهذا العصر الذهبي أعظم ولا أصدق من ذلك الحنين الذي يذكره به غلاة الوطنيين الإسبان وكبار كتابهم، حين يلتفتون إلى ماضي بلادهم، ويتمنون لها حاضرًا كماضيها في أيام الدولة العربية.... وأول ما يُستخلص من قيام الحضارة الأندلسية على هذا الوصف المتفق عليه، أن آثارها في أوروبا كانت أعم وأعمق مما تسجله الكتب المطولة أو الكلمات المقتبسة؛ لأننا نرى بأعيننا في عصرنا الحاضر كيف يكون أثر القدوة بالسماع، فضلًا عن القدوة بالمعاشرة الطويلة بين الشعوب.

وبذلك كانت بلاد الأندلس جسرًا ثقافيًّا عبرت من خلاله المعارف العربية الإسلامية والتراث الفكري القيم إلى أوربا عن طريق حركة الترجمة التي تعد وسيلة للتواصل الحضاري بين الشعوب والتي كان لها الأثر الكبير في بعث نهضة أوربية شاملة.

أما صقلية: فقد مضت ثلاثة قرون وهي تحت حكم الدولة البيزنطية، وكانت سنين عجافًا سادها الفقر الفكري، وترتب عليها سيادة الجهل وجمود الأذهان. وحين فتحها العرب المسلمون سنة ٢١٢ه/ ٨٢٧ م حتى أخذها منهم النورمانديون سنة ٤٩٤هـ/ ١٠٩٠م صارت "مركزًا رائعًا من مراكز التبادل الثقافي ومن أهم مراكز الترجمة التي أثرت في أوروبا تأثيرًا بالغًا. فقد حكم العرب هذه الجزيرة أكثر من قرنين ونصف من الزمان (٢١٢ - ٤٨٤هـ/ ٨٢٨ إلى ١٠٧٨م) ونشروا في ربوعها حضارة مزدهرة كانت لها انعكاساتها الإيجابية على نهضه أوروبا، وتطور الحياة العلمية فيها". [١]

(١) معابر التواصل اللغوي والحضاري بين الشعوب (صقلية) – د/أنور محمود زناتي – مقال بشبكة الألوكة تاريخ الإضافة 10/1/ 2012 م – ١٥/١١/١٤٣٣ه.

أما الحياة العلمية في صقلية فقد كانت تهتدي بالأنوار المنبعثة من القيروان، وكان لكل حادث أفريقي هام صدى فيها، وسر هذا ليس في أن صقلية قريبة في موقعها من شمال أفريقية فحسب، ولكن لأن أهل أفريقية هم الذين افتتحوها، ومن ثم ظلت العلاقات قائمة بين المهاجرين وإخوانهم في الوطن الأصلي، وزاد هذه العلائق توثقًا تجدد الهجرة من أفريقية إلى صقلية ورحلة الصقليين إلى القيروان في طلب العلم، وهي ظاهرة نراها موجودة حتى بعد أن أصبح لصقلية في النواحي العلمية اسم مذكور. وفي أيام الكلبيين تمتعت صقلية بشيء من الاستقلال الذاتي مصحوبًا ببعض السيطرة الفاطمية، وكان هذا الوضع السياسي ذا مظهرين: أما أولًا فقد تبلورت في صقلية جهود علمية خاصة وأصبح الجيل الناشئ من أبناء الفاتحين صقلي الروح والإنتاج إلى حد ما، وأما ثانيًا فقد أصبحت القاهرة تشارك القيروان في توجيه الحياة الثقافية في الجزيرة. وفي هذه الفترة أعلنت بلرم عن وجودها الثقافي والعقلي، وأصبحت تذكر مع القاهرة والقيروان وقرطبة، وأضحى لها علماء وأدباء يهاجرون إلى الأندلس ومصر وشمال إفريقيا. ونحسب أن كثيرًا من هؤلاء المهاجرين كان يبحث عن الشهرة في بلد كالقاهرة أو قرطبة إلى جانب بحثه عن وسائل العيش. وإلى جانب هؤلاء جماعة ممن كانوا يسافرون في طلب العلم أو الأداء فريضة الحج ثم يعودون إلى ديارهم. وعلى هذا لم تكن صقلية تعيش في عزلة تباعد بينها وبين غيرها من البلاد الإسلامية، ولكن الحركة كانت بطيئة، كانت أخطار البحر تحد من نشاطها. ومع ذلك فقد كانت الأسواق الصقلية مجالًا لتبادل السلع والأفكار والرحلة وعاملا أكيدًا في تفاعل الآراء، كما كانت الرسائل المتبادلة بين أهلها وناس في خارجها حلقة من حلقات الربط الثقافي. غير أن هذا الاتصال؟ لم يعم بحيث يفقد صقلية شخصيتها، بل لعلها احتفظت بعلامات مميزة وسمات خاصة رأينا لها أثرًا في الزراعة والصناعة والعادات والمعتقدات، ونحاول أن نتلمس لها وجودًا في النواحي الأدبية والعلمية وإن لم يكن من السهل أن تعثر عليها؛ لأن صقلية في هذه النواحي كانت تستند إلى موروث تشارك فيه غيرها من البلاد الإسلامية ولأن روح المحافظة حالت بينها وبين التفرد الواضح. وإذا كانت

هذه المميزات مما يخفي أثره فليس معنى ذلك انعدامها، ولا يمكن أن يكون علم صقلية كله جلبًا يرد إليها كما ترد السلع التجارية إلى موانيها فذلك يتنافى مع أبسط حقائق الأشياء. (١) وفيما كتبه ابن حوقل عن صقلية ما ينقل إلينا شيئًا عن النشاط الثقافي فيها أثناء فترة معينة. فقد سجل هذا الرحالة؟ حينما زار بلرم؟ ظاهرتين كانتا متلازمتين تقريبًا هما كثرة المساجد وكثرة المعلمين، فعرف أن في (بلرم) ما يزيد على مائتي مسجد، وقرر أنه لم ير مثل هذا العدد في بلد من البلدان الكبار ولا سمع به إلا فيما يتذاكره أهل قرطبة. قال "ولقد كنت واقفًا ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد القفصي الفقيه الوثائقي فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق" وعلة هذه الكثرة فيما استطاع أن يتعرفه من سؤال الناس "أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه، لا يحب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته، وربما كان أخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقبة الحيطان، فعمل كل واحد منهما مسجدًا لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده". وربما كان هذا التعليل الذي يقول به ابن حوقل صحيحًا لأن فيه ما يصور تلك الروح الفردية التي كانت تغلب على الحياة الإسلامية هنالك. غير أنا لا ننسى أن المسجد لازم استيطان المسلمين في كل بلد من بلدان صقلية حتى كان القائد يبني المسجد والمنبر توًّا إثر استيلائه على بلد أو حصن، وهي ظاهرة صاحبت الفتح الإسلامي في أقطار أخرى، ولكنها كانت في صقلية أشد وأعنف، لرسوخ المسيحية فيها عند الفتح، فالإكثار من بناء المساجد خير ما يقنع الجماعة الإسلامية بانتصارها على كل موروث صقلي، وخير ما يطمأن الأذهان إلى تثبيت الصبغة الإسلامية في تلك البلاد، وهي طمأنينة لازمة في بلد مجاور للعدو المتربص. وثمة شيء آخر وهو أن ابن حوقل إنما دهش لكثرة المساجد في (بلرم) وحدها؛ لأنه لم يزر من صقلية بلدًا آخر فيما يظهر، وكانت (بلرم) يومئذ هي العاصمة ومجتمع أهل الأدب ومنتجع طلاب العلم من سائر أنحاء

(١) ينظر: العرب في صقلية – دراسة في التاريخ والأدب – د/إحسان عباس صـ ٨٥ وما بعدها بتصرف.

صقلية، فنشاط الحركة التعليمية فيها كان سببًا في الاستكثار من المساجد ،وانضاف إلى هذا ما قاله ابن حوقل من التكاثر بها، وأصبح غرض كل واحد من بناء المسجد "أن قال مسجد فلان لا غير" في هذه المساجد وفي المكاتب كثر المعلمون، حتى كان منهم في (بلرم) ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم. (١) وهذه الكثرة في عدد المعلمين والمساجد والمكاتب تشير إلى نشاط تعليمي واسع، ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى كثرة المعلمين .... وفي هذه المكاتب وفي حلقات الشيوخ بالمساجد كان الصقلي يتلقى علومه الأولى، فإذا نزعت به في مستقبل حياته نزعة علمية، غادر صقلية إلى المشرق فدرس على أساتذة مشهورين، ورجع يحمل إجازات كثيرة، أو كاتب هؤلاء الأساتذة دون أن يرحل، واستجازهم كتبهم، أو طمح إلى زيارة الكعبة فالتقى في رحلته بالشيوخ المشهورين، فسمع منهم وتلقى عنهم، وعاد إلى بلده، فزادت الرحلة من مكانته، واعتقد الناس أنه قد أصبح علمًا يقصد لعلمه. وكانت مصر مهبط كثير من هؤلاء الراحلين في طلب العلم لعلاقتها بصقلية، ولنشاطها العلمي، ولأنها على الطريق إلى الحجاز..... وكانت الكتب التي يتداولها الطلبة والأساتذة مما يرد على الجزيرة من بلاد المشرق والأندلس والقيروان أو مما يؤلفه الأساتذة أنفسهم. وإذا استطعنا أن نعرف الكتب الواردة التي راجت في صقلية، أو أمثله منها على الأقل، كان كذلك خير معين لنا على تصور الثقافة السائدة في الجزيرة وعلى مدى الامتزاج والتفاعل في تلك الثقافة. وقد كانت الكتب ترحل كالناس في بطء وتتحرك من مكان إلى آخر في أناة، وربما كان انتقال كتاب من بلد إلى آخر حدثًا يستحق التاريخ. فليس بغريب أن يصرح ابن القطاع الصقلي حين سأله المصريون عن كتاب "الصحاح" للجوهري بأن الكتاب لم يصل إليهم في صقلية. (٢)

أما عن الدراسات اللغوية في صقلية فكان لصقلية دور مهم وكان علماؤها يرحلون ويهاجرون إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي حيث نجد أن علماء من

(١) ينظر: العرب في صقلية صـ ٨٧: ٨٨.

(٢) ينظر: السابق صـ ٨٩: ٩٠ بتصرف.

الأندلس وبلاد الشرق يتخذون صقلية موطنًا لهم ومركزًا لنشاطهم. فقد اشتهر فيها علماء أعلام امتدت شهرتهم إلى غير بلدهم كما اجتذبت صقلية إليها فريقًا من مشاهير اللغويين من البلاد الإسلامية الأخرى درسوا فيها وأفادوا فمن هؤلاء راوية المتنبي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: موسى بن أصبغ المرادي القرطبي الذي طلب علم اللغة في المشرق ودخل العراق ولقى ابن دريد ثم اتخذ صقلية وطنًا له وفيها نظم "المبتدا" في ثمانية آلاف بيت. ومنهم صاعد البغدادي وغيرهما. فإذا ذهبنا نبحث عن جهود صقلية نفسها وجدنا نهضتها اللغوية تعاصر نشاطها في الفقه فمع مرور الزمن ظهرت مدرسة صقلية اللغوية المستقلة التي أسسها أبناؤها الصقليون كما هو الحال بالنسبة لمدرسة صقلية الفقهية التي قامت على يد الفقيه ابن يونس، وعبد الحق، وعتيق السمنطاري. وكانت بداية هذه المدرسة اللغوية على يد عالمها الكبير ابن البر أبو بكر محمد بن علي الحسن بن البر اللغوي الصقلي (ت ٤٥٩ه) فهو بحق مؤسس مدرسة صقلية اللغوية التي تخرج منها علماء كبار كابن القطاع الصقلي وعمر بن خلف المكي وغيرهم، وهي مدرسة واضحة المعالم وآثارها معروفة، يضاف إلى ذلك جهود غيرهم من العلماء الوافدين الذين كان لهم أثر كبير في إثراء مدرسة صقلية اللغوية كالناقد والأديب بن رشيق القيروني.(١) وقد اشتهر في هذه الجزيرة عدد من علماء اللغة والنحو منهم محمد بن خراسان النحوي، وإسماعيل بن خلف صاحب كتاب (العنوان في القراءات)، وغيرهما كثير في فروع العلم المختلفة بعد الفتح العربي للجزيرة.(٢) وبعد الغزو النورماندي لها.(٣) إلا أن معظم الأدباء وفقهاء اللغة وأصحاب الدواوين والنحويين والشعراء

(١) ينظر: العرب في صقلية صـ ١٠٨: ١٠٩، والحياة العلمية في صقلية الإسلامية ٢١٢ – ٤٨٤ه/ ٨٢٦- ١٠٩١م صـ ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) ينظر: تاريخ صقلية الإسلامية صـ ٤٩ وما بعدها، والحياة العلمية في صقلية الإسلامية صـ ٣٤١ وما بعدها.

(٣) ينظر: تاريخ صقلية الإسلامية صـ ٨٧ وما بعدها.

لم يتوفر لهم في صقلية النورمانية الحافز الفكري ولا أمان العيش ولا المستقبل؛ فارتحل معظمهم عن الجزيرة ومن أشهرهم ابن القطاع الصقلي (ت ٥١٥هـ/ ١١٢١م) رحل إلى الأندلس ثم على إفريقيا، ومنهم ابن بشرون عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن جعفر بشرون وكان أشهر فقهاء اللغة العرب في الفترة النورمانية، ومحمد بن الفرج الكتاني وكان عالما بالنحو واللغة وفنون الأدب. (١)

وكان التيار الفكري قد انتقل إلى صقلية من شمال إفريقيا والأندلس، وبعد الغزو النورماني للجزيرة عاد فانتقل من صقلية إلى البلاد الإسلامية طالما استمرت هجرة علماء صقلية وشعرائها إليها، إلا أن العديد من علماء صقلية وشعرائها اختاروا البقاء في الجزيرة، وحظي بعضهم بما فيهم الشريف الإدريسي الشهير برعاية النورمان. (٢) ومن حسن حظ صقلية بخاصة وأوربة بصورة عامة أن الحكام النورمانديين الذين خلفوا العرب المسلمين في حكم الجزيرة اتصفوا بالتسامح وبتقدير العلم ورجاله فحافظوا على مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وشجعوا رجالها، وكان لهم دور كبير في انتقال التأثيرات العربية الإسلامية عبر صقلية وجنوب إيطاليا إلى بلدان أوربة، فكان للجزيرة في هذا المجال دور يماثل دور الأندلس. (٣) فحين دخل النورمانديون صقلية أدهشهم ما نقلها المسلمون إليها من رقي وحضارة. وقد بذلوا جهدًا في ترقيتها في كل جوانب الحياة حتى بدا الفرق بينها وبين الدول التابعة لبيزنطة بعيدًا جدًّا، شيدوا مبانٍ عظيمة، ونشطوا وسائل التجارة، وعملوا على استصلاح الأراضي وزرعها، وأدخلوا أنواعًا من النباتات ومن الحيوانات، لم يكن للأوربيين بها عهد ولا علم. إلى جانب ذلك كله، وجدوا فنونًا راقية وأدبًا عاليًا، وعديدًا من المساجد بها حلقات التعليم، تبدأ بتعليم الكتابة العربية والقرآن الكريم، وتنتهي بدراسات عليا في علوم كثيرة دينية وغير دينية..

(١) ينظر: تاريخ صقلية الإسلامية ، صـ ٨٩، ٩٠.

(٢) ينظر: السابق صـ ٨٧.

(٣) دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية صـ ٥٣.

وهكذا تقدُّم ورقي في كل شيء. إن الفرق واسع جدًّا بين ما وجد العرب صقلية عليه بعد خروج البيزنطيين، وبين ما وجدها عليه النورمانديون بعد خروج المسلمين.

وحين ورث النورمانديون هذه الحضارة لم يسعهم إلا الخضوع لها والاقتباس منها، وبرز بين الحكام أنصار الثقافة العربية (روجر الأول ١١٢٧م – ١١٤٥م) فاتح الجزيرة، وابنه (جيرمو الأول) أو (روجر الثاني ١١٤٥م – ١١٦٦م)، وسماهما ابن خلدون في تاريخه باسم (روجار) – فبفضلهما وصلت المعارف الإسلامية إلى أوربا عن طريق نقل التراث القديم وجعله في متناول الأوربيين – وكذا الملك (فريدريك الثاني، ووليم الثاني). وقد أطلق على هذا العهد اسم "العهد العربي النورماندي"؛ ذلك لأن مظاهر الحياة العربية ظلت بادية على كل شيء فيه حتى على حياة الملوك والحكام، وحتى على كنائس النصارى ومنازلهم، وعلى نسائهم وأطفالهم، واستمر ذلك كله أكثر من قرن ونصف القرن، وحقق ذلك ما قيل من أن المسلمين انتصروا في ميدان العلم والحضارة حين هزموا في ميادين الحرب والأعمال العسكرية. فروجر الأول لم يكن مثقفًا ولكن كان ذا تسامح، ورأى أن يستفيد من المسلمين في كل شيء وجده، فكان في جيشه عدد من المسلمين يكون غالبيته، وكان حوله من المسلمين فلاسفة وأطباء، وكان بلاطه بلاط ملك شرقي، وكان كثير من كبار موظفيه مسلمين. وكان روجر الثاني يلبس ملابس المسلمين، ويطرز رداءه بحروف عربية، وكانت هذه ظاهرة شائعة، ولكن خصومه وصفوه بأنه نصف وثني، يعنون نصف مسلم! وجرى حفيده وليم الثاني على نهج أسلافه، ولكن أسمى ازدهار للحضارة العربية كان أثناء حكم روجر الثاني. أما فريدريك الثاني – حفيد روجر الثاني – فكان أبرز وأعجب ملوك صقلية وكان عصره يمثل فجر النهضة الأدبية في إيطاليا، وهي بداية النهضة الأوربية كلها فهو من أشهر هؤلاء الحكام الذين كان لهم دور بارز في بيان هذا التأثير العربي الذي كان أقوى من التأثير اليوناني، والذي انتشر إلى حد ما إلى شمال إيطاليا وألمانيا ومقاطعة

(بروفانس) بجنوبي فرنسا وكانت مكتبته تزخر بالكتب اليونانية والعربية، بل كان على اتصال شخصي بالعلماء العرب المبرزين في العلوم العربية والإسلامية، وتحت رعايته تقابل التياران الأندلسي والصقلي لنقل التراث العربي إلى أوربا وامتزجا إلى حد ما .... بل كان لدى فريدريك اهتمام شخصي كبير بالفلسفة العربية وإن كان تأثره بابن سينا أكثر من تأثره بابن رشد عند البعض. كما درس مؤلفات ابن ميمون، ولعله كان يعرف العبرية. (١) ولكنه لم يستطع التخلص من التيارات التي كانت تعاصره، ولا من سيطرة الروح الصليبية عليه.

فالفترة الإسلامية في تاريخ الجزيرة احتلت مركزًا مميزًا واعتبرت من أزهى الفترات التي مرّت بها، حيث بلغت العصور الوسطى أوج ازدهارها وتقدّمها الاقتصادي والعمراني والعلمي، حتى عدت العاصمة "بالرمو" في طليعة المراكز العلمية الإسلامية، شأنها في ذلك شأن بغداد ودمشق والقيروان والقاهرة والمدينة المنوّرة وقرطبة وإشبيلية وغيرها. وكانت صقلية موئلًا لنخبة من مشاهير العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والصنّاع والحرفيين الذين كانوا ينتسبون إليها وإلى مدنها كالصقلي والسمنطاري والجرجنتي والسرقوسي والمسيني. فانتعشت الحركة الفكرية والعمرانية والزراعية في الجزيرة، مما جعلها كوكبًا ساطعًا في ظلام العصور الوسطى الذي خيّم على أوروبا، وكانت كالأندلس سببًا مباشرًا في إيقاظ أوروبا من سباتها.

وقد استمرت مؤثرات العرب الحضارية في الجزيرة أكثر من مئتي سنة أخرى، وكان التفاعل الحضاري بين العرب والصقليين والأوروبيين طيلة خمسة قرون في أوسع مدى حضاري، خاصة أن سكان صقلية في فترة الحكم العربي

(١) ينظر: تاريخ صقلية الإسلامية صـ ١٠٢ وما بعدها بتصرف، ودور الثقافة العربية في البحر الأبيض المتوسط صقلية والأندلس خلال العصور الذهبية للإسلام في الغرب – د/ جمال عبد الكريم صـ ١٥.

قاربوا مليونًا وستمائة ألف نسمة بينهم ستمائة ألف مسلم، وهي كثافة سكانية مرتفعة إذا ما قيست بالنسبة للفترة التاريخية في العصور الوسطى. (١)

وقد توافرت في الجزيرة عدة عوامل ساعدت على ازدهار العلوم والآداب في الجزيرة أهمها: أن المسلمين دخلوا هذه الجزيرة وهم في أوج ازدهارهم ورقيهم الحضاري، وكان المشارقة قد ترجموا من علوم الأمم الأخرى، ودرسوا وابتكروا شيئًا كثيرًا، فكانت البلاد الأوربية التي دخلها المسلمون تتلقى ثمارًا ناضجة وعلومًا قد آتت أكلها في جوانب الفكر والحضارة، ولم تكن صقلية منقطعة عن الشرق، كما لم تكن إسبانيا منقطعة، بل كانت رحلات الحج وطلب العلم ولقاء العلماء مما يغذي تيارات الثقافة بها، فظل النشاط الثقافي والحضاري بها مستمرًّا متجددًا. ومنها: أن العلماء في المحاضر الملحقة بالمساجد كانوا معفيين من المشاركة في الجهاد، وأن النخبة الحاكمة من الأغالبة والكلبيين كانت تضم أشخاصًا لم يكونوا رعاة للآداب فحسب بل كانوا هم أنفسهم كتابا مبدعين، وكانت صقلية مأوى أمينا يلجأ إليها العلماء المضطهدون في شمال إفريقيا، ومن ناحية أخرى كان علماء صقلية يرحلون أثناء فترات الاضطهاد إلى شمال إفريقيا ومصر، لا بل إنهم كانوا يرحلون إلى جهات أبعد شرقًا طلبًا للعلم أو لتأدية فريضة الحج، إن حركة العلماء هذه من صقلية وإليها أبقت على الجزيرة في المجرى الرئيسي لحركة العلوم، وقد استفادت صقلية في القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد على وجع الخصوص من التيارات الفكرية الكبرى التي نمت في القيروان، وكانت المساجد في الغالب مراكز لهذه النشاطات الفكرية وفيها كان يدرس علما النحو واللغة فضلا عن العلوم الدينية كالفقه والحديث والقراءات. (٢)

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية – عباس العقاد صـ ٨٥، ٨٦. معابر التواصل اللغوي والحضاري بين الشعوب (صقلية) – د/ أنور محمود زناتي – مقال بشبكة الألوكة تاريخ الإضافة 1/10/2012 ميلادي – ١٤٣٣/١١/١٥ هجري

(٢) ينظر: تاريخ صقلية الإسلامية – د/ عزيز أحمد صـ ٤٩.

أما عن دور صقلية في انتقال التراث العربي إلى أوربا: فقد كان موقعها الجغرافي المتميز عاملا مهما في معرفة الغرب لعلوم الشرق، وكانت صقلية وعلى الأخص عاصمتها (باليرمو) أكثر مدنها ازدهارا وتألقا ونقلا للعلوم الإسلامية، ويرجع الفضل في ذلك إلى أن الملوك قد احترموا هذه الحضارة وعرفوا قيمتها وحافظوا على تراثها وشجعوا علماءها وأدباء المسلمين ما أدى إلى استقرار الحضارة الإسلامية في صقلية بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها حكامها النورمان وبخاصة الإمبراطور فردريك الثاني الذي امتدت فترة حكمه ما بين (١٢٢٠م – ١٢٥٠م) إمبراطور ألمانيا وإيطاليا وقد عمل أيضًا على تشجيع ترجمة العلوم الإسلامية إلى اللاتينية حتى يستفيد منها الأوربيون مما أدى إلى نهضة القرن الثاني عشر الميلادي بأوربا. (١) إذ كان عصره مهما بالنسبة لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ونقل المعارف الإسلامية إلى غرب أوربا.

فهذا الدور وإن كان صغيرًا إذا ما قورن بدور الأندلس في هذا المضمار إلا أن عظمة مملكة النورمان في صقلية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كان بها عنصر فكري معاصر لقيام حركة النهضة الإيطالية في ذلك القرن. وهذه النهضة اكتسبت معلومات جديدة من بيزنطية ومن العرب في الأندلس وصقلية. ومع أن صقلية لم تكن مهمة نسبيًّا كمعبر للاتصال الفكري فإنه كما بين هاسكينز: "لم تقم في أي مكان آخر غير صقلية الحضارات اللاتينية واليونانية والعربية جنبًا إلى جنب في جو يسوده السلم والتسامح، ولم يعبّر في أي مكان آخر عن النهضة بوضوح أكثر مما عبرت عنه سياسة الحكام". كانت العربية لغة العلم في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وترجمات المؤلفات اليونانية من العربية إلى اللاتينية سبقت ترجمتها من اللاتينية مباشرة، وكان للشروح والتعاليق العربية على مؤلفات جهابذة اليونان أثر عميق على الفكر الأوربي، كما ترجمت

(١) ينظر: دور الثقافة العربية في البحر الأبيض المتوسط صقلية والأندلس خلال العصور الذهبية للإسلام في الغرب صـ ٤٢.

كتب كثيرة من توليف العرب والمسلمين أنفسهم ... كذا كان التأثير اللغوي العربي في صقلية له دور كبير في الإيطالية. (١)

وكانت الترجمة الأدبية كنوع خاص من الترجمة، قد ظهرت إرهاصاتها في صقلية والأندلس خلال القرنين ١٢ – ١٣م حيث إن أكثر ما ترجم من الأدب إجمالا في هذين القطرين، كان في الغالب ما يتعلق بالشعر والقصة، على غرار حكايا كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، والسندباد، وقصة حي بن يقظان. هذه الحكايات التي لها أثر واضح في الأدب الأوروبي. وقد لاحظ عالم إيطالي كبير أن معظم التعابير العربية التي تغلغلت بكيفية مدهشة في لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري، ولكن بفضل إشعاع الإسلام الثقافي. (٢)

ولم يكن عجيبًا بعد هذا أن يفد روّاد الدراسة الاستشراقية من أوربا إلى صقلية، وأن تتبوأ هذه الجزيرة زعامة البحر الأبيض، وكل ذلك بفضل العرب فلاسفة وعلماء وعمالًا. وفي العصر الحديث اهتم المستشرقون الألمان بالحضارة العربية ولغتها وعلومها ودراساتها ومخطوطاتها النادرة؛ فنشطت الترجمات في بلادهم، ومن أهمها: ترجمة القرآن الكريم والعديد من المخطوطات والكتب العربية العريقة، ونالت الجزيرة المتوسطية ذات الماضي العربي عناية خاصة.

ومهما يكن من أمر صقلية فإنها أسهمت بحظ وافر في نقل العلوم الشرقية إلى الغرب وكانت مركز ترجمة نشيطة، وبحكم موقعها وتاريخها كانت ملتقى أجناس ولغات، وسادت فيها اللغات الحية إذ ذاك الواسعة الانتشار اليونانية واللاتينية والعربية، وكان بها يهود مترجمون أيضًا على نحو ما كان في طليطلة. وفي صقلية ترجم المجسطي من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة، وترجم في الأندلس من العربية. وفيها ترجم كتاب البصريات الذي كان بطليموس أخرجه في

---

(١) ينظر: تاريخ صقلية الإسلامية – د/ عزيز أحمد صـ ١٠١: ١١١.

(٢) ينظر: العربية لغة العلم والحضارة – مقال في النت للأستاذ / عبد العزيز بن عبد الله بتاريخ ١١/ ١١/ ٢٠١٦.

الإسكندرية، وفيها ترجمت كتب أدبية أخرى. وتوج فريدريك الثاني أعماله الجميلة بتأسيسه جامعة نابل في إيطاليا الجنوبية وأودعها مجموعة كبيرة من كتبه الخاصة، ودرست فيها مؤلفات ابن رشد، وهذا عمل له قيمته؛ لأن أوربا عادت فلسفة ابن رشد مدة طويلة، وقيمة جامعة نابل أنها أول جامعة رسمية، وكانت الجامعات الأخرى إلى ما بعد ذلك العهد جامعات أهلية تابعة للأديرة والكنائس، وكانت تقوم على التبرعات والهبات، أما جامعة نابل فقد نشأت ملكية مشمولة برعاية إمبراطور عالم، واستعارت منها بعض الجامعات الأخرى، وعلى الأخص جامعة باريس ما لديها من التراجم التي أمر بها فريدريك، ومن الذين تخرجوا في هذه الجامعة توما الإكويني، وأثره معروف في نشر الفلسفة والثقافة الشرقية في أوربا. ويكفي صقلية – وهي جزيرة صغيرة بجانب إسبانيا الواسعة – أن تكون قد أسهمت في نقل الحضارة الشرقية إلى الغرب، وأن يكون لها نصيب غير خفي في إيقاظ أوربا العصر الوسيط من سباتها العميق، وأن تكون برزخًا في نقل جزء كبير من حضارة الشرق إلى الغرب. ولم يكن عجيبًا بعد هذا أن يفد روّاد الدراسة الاستشراقية من أوربا إلى صقلية، وأن تتبوأ هذه الجزيرة زعامة البحر الأبيض، وكل ذلك بفضل العرب فلاسفة وعلماء وعمالًا. (١) وهكذا كان لهذا الملك (فريدريك الثاني) فضل كبير في نشر الثقافة الإسلامية في أوربة، فقد استيقن فريدريك أن العلوم والآداب تأبى التميز بالمكان، وترنوا إلى التلاقي والتعارف والتهادي في حرم لا تدوسه رجل أي متعصب .... وهكذا نجد من نتائج الفتح الإسلامي لصقلية أن فرضت الثقافة الإسلامية نفسها على النورمانديين أولًا وعلى أوربا ثانيًا، وأن شعاعًا من ذلك النور العظيم اتخذ سبيله إلى أوربة خلال القرن الثالث عشر الميلادي لا عن

(١) ينظر: حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوروبية – مقال بقلم د/ عبد الجليل شلبي – موقع قصة الإسلام ٥ / ٦/ ٢٠١١ – ومجلة الفسطاط التاريخية، نقلًا عن مجلة الأمة، العدد ٢٧، ربيع الأول ١٤٠٣هـ.

طريق اللاتين أو البيزنطيين، بل عن طريق المسلمين أصحاب الأندلس وصقلية الإسلاميتين. (١)

وقد استفاد ملوك النورمان في القرن الحادي عشر من منجزات العلماء المسلمين فيها وشجعوهم على مواصلة البحث العلمي ودراسة الظواهر المختلفة فكانت بذلك معبرًا للحضارة الإسلامية إلى أوروبا. إذ لم ينته الوجود العربي في صقلية بخروج العرب فهم لم يخرجوا جميعًا، بل بقي منهم الكثير بتشجيع النورمان – الذين لم يحاولوا اجتثاث العرب كما فعل الإسبان – على البقاء؛ فبقيت تأثيرات العرب واضحة في الفنون والعمارة. ولا تزال الكثير من تلك الاثار موجودة خاصة في النقوش الموجودة على القصور والكنائس التي ترجع إلى العصر العربي وما بعده، بل إن سكان صقلية الأصليين يختلفون في ملامحهم عن سائر الإيطاليين ويحتفظون ببعض التقاليد التي ترجع لفترة الوجود العربي كالثأر والحمية والانتماء إلى العائلة. كانت صقلية رافدًا مهمًا لانسياب الحضارة والمؤثرات العربية إلى أوروبا، ويمكن تمييز الملامح والدماء العربية الواضحة في السكان الأصليين لصقلية حتى اليوم، بل إن كثيرا من أسماء المدن الصقلية هي في الأصل أسماء عربية مثل(مارسالا) التي أصلها مرسى الله أو مرسى على، وقد دخلت مفردات عربية كثيرة في اللغة الإيطالية عبر اللهجة الصقلية مثل: كلمة Meschino مسكينو والتي تعني المسكين أو الفقير بالعربية.

ومن هنا نقول: إن صقلية كانت بحق مركزًا مهمًا من مراكز نقل الفكر الإسلامي إلى الغرب، فقد كانت في العصور الوسطى مركز إشعاع فكري لأوربة جميعًا. (٢) حتى بعد سقوط الحكم العربي استمر التفاعل الثقافي بين عرب شمال أفريقيا وسكان جنوب أوروبا عبر الممر الصقلي، وإلى جانب الأندلس وفرت بيئة صقلية المتعددة اللغات وسيلة انتقال لعدد من المفردات العربية إلى مختلف اللغات الأوروبية الحديثة.

---

(١) فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات – د/ شوقي أبو خليل صـ ٨٤: ٨٥ بتصرف.

(٢) السابق صـ ٧٩ بتصرف.

المبحث الثاني

الترجمة ودورها في نقل التراث العربي الى الغرب ومدى التأثر بها

الترجمة فعل ثقافي لغوي حضاري ووسيلة مهمة وفاعلة في الرابط بين الحضارات، والمترجمون رسل التنوير وخيول بريد التنوير، من قديم الزمان، وحتى يومنا هذا لم تفقد الترجمة أهميتها أو ضرورتها أو فاعليتها، فهي الوعاء الذي تنقل من خلاله المعرفة من بلد إلى آخر ومن لغة إلى أخرى، إذ تساعد على الاطلاع على معارف الآخرين وعلومهم وثقافاتهم، فهي وسيلة تبادل ثقافي وتفاعل حضاري بين الشرق والغرب، كالإغريق والسريان والمسلمين.

وقد وقف المسلمون – على سبيل المثال – حتى منتصف القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي في النقل والترجمة على تراث اليونان والفرس والهند. (١) ففي نهاية العصر الأموي بدأت ترجمة العلوم إلى اللغة العربية، وأول من بدأ حركة الترجمة في ذلك العهد خالد بن يزيد حفيد معاوية الأكبر المتوفي سنة٧٠٤م. وعندما ازدهرت الحركة الأدبية في العصر العباسي، وخاصة في عهد هارون الرشيد (١٧٠–١٩٣هـ) وابنه المأمون حيث زاد الاهتمام بعلوم الأقدمين، فترجمت كتب الفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات والتاريخ والكيمياء والتشريح وغيرها من العلوم من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والكلدانية إلى اللغة العربيةP مما أوجد نهضة علمية وأدبية منقطعة النظير في تاريخ اللغة العربية امتدت إلى كثير من أقطار آسيا وأوروبا وأفريقيا، فطرأ بواسطتها تطور على اللغة العربية كان من نتائجه وجود لغة علمية تقاس بمعيار المنطق والبرهان العقلي كما وضع الكثير من مصطلحات العلوم والفنون وضعية كلمات جديدة في جميع العلوم والمعرفة. (٢)

---

(١) ينظر: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية – أ/ هاني المبارك، ود/ شوقي أبو خليل صـ ٢٩.

(٢) ينظر: فضل علماء المسلمين على النهضة الأوربية – د/ عز الدين فراج صـ ١٥ وما بعدها بتصرف.

وبعد عصر النقل هذا ابتدأ عصر الابتكار والإضافة، حيث انتقلت الحركة العلميَّة من طور الترجمة واستيعابِ العلوم القديمة إلى مرحلة الابتكار الأصيل وإنتاجِ معارف جديدة عن طريق البحث وَفْق منهج علمي سليم يؤدِّي إلى الأحكام الصائبة والنتائج الواثقة. وأخذت رحلة المعرفة الإسلامية سبيلها إلى الغرب بالترجمة من طرق عدة كان منها: ترجمة العلوم الدينية والاجتماعية، وترجمة العلوم الرياضية والطبيعية، وترجمة العلوم العقلية. وجدير بالذكر أن هذه الرحلة تشابهت مع رحلة المعارف اليونانية والهندية والفارسية في طريقها إلى اللسان العربي من قبل، وذلك من حيث اهتمامها بالدرجة الأولى بالعلوم العقلية والفلسفية خاصة؛ لأن الأوروبيين وجدوها فرصة لاسترداد تراثهم اليوناني الضائع عبر الترجمات العربية للإرث اليوناني.

إن مكانة التراث العلمي الإسلامي تتمثل فيما حققه المسلمون من ترجمة ونقل من لغات أمم أخرى إلى اللغة العربية، فحفظوا بذلك تراثًا ضخمًا من العلم، لولا ذلك لضاعت معارف كثيرة، ولتأخر ركب الحضارة عدة قرون، فلم يكن الإسبان باستطاعتهم الحصول على مؤلفات الإغريق وفلاسفتهم إلا عن طريق المسلمين ونقولهم، واستمر الحال على ذلك بضعة قرون، وكان من مميزات هذا الحفظ التركيز على النافع منه للمسلمين والأمم الأخرى؛ فتمكن الأوربيون من إعادة نقله من اللغة العربية إلى لغاتهم بعد أن تعلموا العربية. فليس هناك ابتكار أعظم من ذلك التعطش الذي ملك على قادة الفكر الإسلامي وحكامهم حواسهم في سبيل المعرفة، ولا يمكن أن يكون هناك ابتكار مخلوق من العدم. وكان من أثر الترجمة ازدهار الحضارة الإسلامية، وجمعها بين العلوم النقلية والعقلية، بعد تخطي مرحلة الأخذ والتأمل وتميزها بالشمولية والعمق، فبذلك كانت الترجمة من الممهدات لحركة التأليف والتشجيع على العلم والبحث والتحليل والتصحيح لما تمت ترجمته،

والتأليف في موضوعات جديدة، مما أثرى الحضارة الإسلامية بالإنتاج العلمي الغزير، وظهر هذا الأثر في أكثر من مجال منها. (١)

وقد أدت هذه الترجمة من العربية إلى اللاتينية إلى نتائج مهمة انتهت بظهور حضارة متميزة. حيث كان للمعارف الإسلامية التي بدأت تتسرب إلى أوروبا عبر ثلاثة معابر: الأندلس، وصقلية، والحروب الصليبية دور بارز ومؤثر في قيام النهضة الأوروبية الحديثة بمجالاتها المتعددة من الأدب واللغة والفلسفة إلى الجغرافيا والطب والفلك مرورا بالعلوم والرياضيات، حتى الموسيقا، فكان اعتماد الغرب على الكتب العربية حيث أفسح العلماء والأعلام ومشاهير الفلاسفة من العرب مجالا لتقدم العلوم والفنون ورفعوا منار المدينة أكثر من خمسة قرون بينما كانت القارة الاوربية بأسرها غارقة في سبات عميق، ولما أفاق الغربيون من سباتهم هذا أخذوا يترجمون من العربية إلى اللاتينية ولم يقتصروا على كتابات العرب الأصلية بل ترجموا أيضا ما نقله العرب من العلوم عن قدماء الاغريق، وكانوا يترجمون من العربية إلى اللاتينية التي كانت وما برحت لغة العلم عندهم. حيث كان الاحتكاك المباشر – منذ القرن الثاني عشر حتى الخامس عشر– بين المسلمين والأوروبيين قد أدى إلى نشوء الأدب الأوروبي، وكان دخول أنماط الأدب العربي للأدب الأوروبي مظهرًا من مظاهر الحركة الثقافية بعامة هناك. فقد كانت أوروبا تعيش في تخلُّف وتراجع، في الوقت الذي كان العالم الإسلامي في نهضة وحضارة، وفي مجال الثقافة كان الجهل هو الطابع المميز لأوروبا؛ لأن وسائل نقل العلم كانت مجهولة، وأسعار الكتب مرتفعة جدا، والأمية متفشية بين الناس، وكانت اللاتينية لغة الكنيسة المؤسسة الثقافية الوحيدة وهمزة الوصل بين التراث القديم والثقافة المعاصرة. وقد تألفت في طليعة سنة ١١٣٠م جماعة من المترجمين برئاسة رئيس الأساقفة ريموند وكان فضل هذه الجماعة كبير على البلاد الأوروبية وظلت جامعات أوروبا أكثر من خمسة قرون تعتمد في مواردها العلمية على الكتب

(١) ينظر: الترجمة رافدًا للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس – د/علي سليمان محمد ص1748.

العربية. وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المقررة في جامعة (tubinjen) أضعاف الكتب اليونانية، وكانت مؤلفات الرازي وابن سينا تدرس في جامعة الطب الكبرى في (مونبليه) حتى القرن الثامن عشر، مما كان له أثره الكبير على النهضة العلمية في أوربة. رغم محاولات طمس دور الحضارة العربية الإسلامية من قبَل بعض العلماء الأوروبيين الذين قالوا هذه بضاعتنا ردت إلينا فما هي إلا علوم أجدادنا اليونانيين وقد أخذها عنهم العرب ونسبوها إلى أنفسهم. لكن المنصفين من علماء الغرب يدركون فضل الحضارة العربية الإسلامية على بلادهم عن طريق ما ترجموه وطوروه من علوم الأمم الأخرى أو عن طريق ما ترجم من علومهم ومعارفهم التي شهروا بها في المجالات العلمية كافة إلى الغرب، وانتقلت الحركة العلميَّة من طور الترجمة واستيعابِ العلوم القديمة إلى مرحلة الابتكار الأصيل وإنتاجِ معارف جديدة؛ عن طريق البحث وَفْق منهج علمي سليم يؤدِّي إلى الأحكام الصائبة والنتائج الواثقة. تقول المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكة) التي أعجبت بالحضارة العربية الإسلامية: "حين أراد الأوربيون أو بعضهم الاعتراف بدور العرب المسلمين قالوا: إنهم أصحاب فضل بنقل كنوز الإغريق والرومان إلى أوربة. لقد فعل الحقد الدفين والتعصب الأعمى فعلهما في قصر فضل العرب على دور النقل – كساعي البريد – فقط، فأين هذا من دورهم الحقيق في حفاظهم على التراث الحضاري للشعوب القديمة من يونان وفرس وهنود وغيرهم، ودراستهم لهذا التراث بعد ترجمته إلى العربية وعرضه على مقاييس العقل والتجربة، وتصحيح أخطائه إكمال نقصه وقبول تصحيحه، ومتابعة أبحاثه ودراساته حتى أصبحت علوم دلك التراث الإنساني علوما جديدة متقدمة ومتطورة على أيد علماء العرب والمسلمين ... وبناء على ذلك نقول إن هذا التراث العربي الإسلامي – وليس تراث اليونان – هو الذي وصل إلى أوربة فساعد على انتقالها من جهالة عصورها الوسطى المظلمة إلى ما يعرف بعصر النهضة فعرفت التحرر الفكري الذي كان

أهم ما يميز الحضارة العربية الإسلامية وهو ما كانت أوربة تفتقدها في عصورها الوسطى". (١)

ومن أبرز آثار هذه الترجمة من العربية إلى اللاتينية في النهضة الأوربية تأثر ألبرتس الكبير (١٢٠٧ – ١٢٨٠م) الذي درس ما ترجم من مؤلفات الفلاسفة العرب المسلمين دراسة عميقة فأخذ عن ابن سينا واعتمد على الفارابي وابن رشد. ونقل جيرار الكريموني الإيطالي (١١١٤ – ١١٨٦م) قرابة تسعين عملا عربيا إلى اللاتينية. والقديس توما الأكويني أكبر الفلاسفة الأوربيين في القرن الثالث عشر حيث نجد آثار الفلسفة العربية الإسلامية عنده أعمق وأنضج وإن أخفى مصادره دائمًا بشكل مباشر بعكس ألبرتس الكبير، ومنها إعلان المستشرق الألماني (أسين بلاثيوس) تأثر دانتي في الكوميديا الإلهية بالإسلام تأثرًا عميقًا واسع المدى وكان مما تأثر به رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وبعض كتب الشيخ محي الدين بن عربي. (٢) ولا أدل على ذلك من قول كارادي فو: "إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق (التحرر) من أحابيل البربرية وأغلالها، ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر) حتى القرن الخامس عشر في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدا كانت مراكش والشرق الأوسط محط أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوربا يترجمون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق". (٣)

إن التراث العلمي العربي الاسلامي قد أثر في أوروبا وهداها السبيل الى التقدم الحضاري العلمي وذلك بعد أن نقلت وترجمت الى اللاتينية زبدة التقدم

---

(١) ينظر: شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوربا) – زيغريد هونكة صـ ١٢ بتصرف، ودور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية صـ ٢٥: ٢٦ بتصرف.

(٢) ينظر: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية صـ ٣٩: ٤٣ بتصرف.

(٣) ماذا قدم المسلمون للعالم إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية صـ ٧٣٥.

والازدهار العلمي الإسلامي، أي أن الترجمة اضطلعت بالدور الأساس في الانتقال المعرفي الإسلامي إلى الآخر. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا حركة الترجمة لمكثت أوروبا في غياهب الظلمات قرونا أخرى، ومن هنا فإنها مدينة للحضارة الإسلامية فيما شهدتها من التقلبات والتطورات منذ أواخر العصور الوسطى والقرون التالية، هذا بإقرار المنصفين من المستشرقين والعلماء الاختصاصيين في المجالات العلمية المختلفة.

أما طرق الترجمة فلم تبدأ الترجمة الحقيقية إلا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حين اتجهت الأنظار إلى الأصول اليونانية، وأنشئت بعض المعاهد لتعليم اللغات العربية والعبرية، وكانت بلاد الأندلس هي الجسر الحضاري الذي نقل أوروبا من عالم القرون الوسطى إلى عالم العصور الحديثة بقوة وثقة في جميع مجالات المعرفة الإنسانية، وقد تمثلت اهتمامات الأندلسيين بالترجمة للآثار اليونانية متمثلة فيما استجلبوه منها أو استجلب لهم من قبل الوافدين المشارقة، وهي أولى المعالم في طريق الترجمة في الأندلس، ذلك أن هذه المصنفات المترجمة انتهت على أيدي الأندلسيين، وقد أتاحت لهم الاطلاع على معارف القدماء وعلومهم، وفي المراحل التالية نقلت من العربية الى اللغات الأوربية لينهل منها الاوربيون. فقد "شاعت اللغة العربية في القرون الوسطى بين علماء أوروبا؛ لكثرة الأقوام المتكلمين بها؛ ولشهرة فلاسفة الإسلام بينهم كابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابي والرازي. فظلَّت تدرس فلسفتهم وطبهم في جامعات أوروبا حتى السنة ١٦٥٠ للميلاد. وعثر "داڤيك" في مدرسة مونبليه على ترجمة القرآن في اللغة اللاتينية، بقلم الأخ "دومينيك جرمان" الصقلي، فنشرها في المجلة الآسيوية. وفي السنة ١١٣٠ م تأسست في طليطلة كلية لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية برعاية الأسقف (ريموند ت: ٥٤٧ه/ ١١٥١م) حيث توافر في طليطلة مجموعات متخصصة في الترجمة، وقام بعده جيرار دي كريمونا سنة ١١٧٠م فترجم كتب الرازي والزهراوي وابن سينا. وما كان القرن الخامس عشر حتى بلغ عدد

الجامعات في إسبانيا ست عشرة جامعة. فكانت قرطبة بمكتبتها العامرة موضوع إعجاب الأوروبيين. وألقت جامعة إشبيلية دروسها باللغة العربية. ولم تكن صقلية وجنوب إيطاليا بأقل حظّاً من إسبانيا؛ ففي القرن الحادي عشر للميلاد تأسست جامعة (ساليرنو) التي سيطر عليها الفكر العربي مدة قرنين. وكان لقسطنطين الإفريقي اليد الطولى في إدارتها. ثم قامت جامعة پالرنو ومونبليه، وتلتها جامعات باريسوبولونيا وأكسفورد وبادوا وغيرها، وعُنِيَتْ هذه الجامعات كلها بتدريس العلوم العربية، فأثارت في الغرب ثورة فكرية جديدة أنارت سبل أوروبا، وفتحت أمامها أبواب ثروة علمية استفادت منها فائدة عظمى". (١) فمدينة طُلَيطِلَةُ بعد سقوطها في أيدي المسيحيين سنة ٤٨٧ هـ كانت هي المركز الرئيسي لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وقد أنشأ "ريموند "رئيس أساقفتها مكتبا للترجمة، وكان المستعربون من أهل الأندلس أكبر المساهمين في حركة الترجمة ومن أشهرهم "دومونيقوس جوند يسا لفى" و "بطرس الفونسي" و "حنا الأشبيلي" وغيرهم، وقد ترتب على هذه الحركة وجود ثورة علمية وفكرية هائلة في غرب أوروبا؛ ذلك لأن المعارف الجديدة التي نقلت من العربية إلى اللاتينية أضاءت أمام الأوربيين طريق الحياة، وبددت ضباب الجهالة الذي حجب عنهم رؤية الحضارة وأيقظتهم من سباتهم العميق ونبهتهم من غفلتهم الطويلة فأقبلوا على دراسة الحضارة الإسلامية بشغف بالغ ونهم شديد. ومنذ ذلك الحين ولعدة قرون أضحت طليطلة المركز الاساسي للحركة العلمية ومركز استقطاب العلماء وطلبة العلم الذين يأتون إليها للدراسة وترجمة الكتب العلمية والفكرية للمسلمين وبعد عودتهم الى بلدانهم كانوا يقومون بنشر المخطوطات التي اطلعوا عليها خلال مكوثهم في المدينة. (٢)

---

(١) ينظر: اللغة العربية في أوروبا – فيليب دي رازي صـ ١٠.

(٢) ينظر: حركة الترجمة في الاندلس ودورها في التقدم العلمي الأوربي ٦ – ٨ه / ١٢ – ١٤م – د/ حكيم أحمد مام بكر صـ ٣، نقلا عن: إسبانيا في تاريخها المسيحيون والمسلمون واليهود، – كاسترو اميركو صـ ٥٤٤.

وفي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي بدأت أوروبا في الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وتمت في هذه المرحلة ترجمة العديد من الأعمال التي كتبت أصلًا باللغة العربية جنبًا إلى جنب مع الترجمات العربية للأعمال اليونانية القديمة. وقد تأسست لهذا الغرض لجنة من المترجمين في مدينة طُلَيطِلَةُ Toledo الإسبانية في عام ١١٣٠م برئاسة كبير الأساقفة ريمون Raymond وكان لهذه اللجنة الفضل في نقل العلم والمعرفة اللذين توصلت إليهما الحضارة الإسلامية إلى الأمم المسيحية في أوروبا. كما تمت ترجمة الكثير من الأعمال سواء من العربية أو اللاتينية أو اليونانية إلى لغات أخرى عديدة من بينها الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية والعبرية والألمانية. وهكذا تخللت العلوم والثقافة العربيتين أوروبا الغربية عن طريق الترجمة.

أما العوامل التي ساعدت على ظهور الترجمة بالأندلس فكانت: استقرار الوضع السياسي في أوروبا ابتداء من القرن الحادي عشر حيث تراجع الضغط الإسلامي في صقلية والأندلس، وازدادت الحملات الصليبية على الشرق والسيطرة على بيت المقدس، وكذلك: الاتصال الثقافي بين المسلمين والأوروبيين، ومن مظاهره وفود بعض الأوروبيين إلى مراكز العلم الإسلامية، الذين أصابتهم الدهشة مما كان يدور في حلقات العلم الإسلامية، فأخذوا العلم على أيدي العلماء المسلمين في الأندلس، التي كانت منبعًا حضاريًّا للعلوم والمعرفة. خاصة بعد سقوط طليطلة ٤٧٧ه/١٠٨٥م، وقيام مدرسة الترجمة فيها برعاية ألفونسو العاشر الحكيم، كما جرت عدة اتصالات أخرى بين الجانبين عن طريق البعثات العلمية.

أما عن ظهور الترجمة بالأندلس فقد كانت الحضارة الإسلامية قد نقلت من حضارات سابقة من دون أن تنسب لنفسها ما أخذتها من غيرها، وحفظت عبر الترجمة علوم الأوائل والتراث اليوناني انطلاقًا من ميزة الحضارة الإسلامية القائمة على القيم النبيلة لهذا الدين. في حين كان الأوروبيون أحيانًا ينحلون لأنفسهم الكتب الإسلامية التي ينقلونها ولم يتحقق التواصل الإيجابي بين الحصارات إلا عن طريق

حركة الترجمة باعتبارها خير وسيط لربط الثقافات بعضها ببعض، وخير معبر عرف أوروبا العلوم العربية واليونانية. (١)

والحقيقة أن تعلُّق المستعربين باللغة العربية كان كبيرًا؛ إذ إن كتبهم وأناجيلهم إلى القرن الرابع عشر كانت مكتوبة بالعربية، وكان أسقف إشبيلية قد وضع في القرن الثاني الهجري ترجمة عربية للتوراة في متناول المستعربين. وشارك المستعربون في نقل العلوم في طليطلة، ولكن إنتاجهم الأدبي كان ضئيلا سواء باللاتينية أو العربية، ولهذا فاللقاء الحقيقي بين الحضارة الإسلامية والمجتمعات الأوروبية كان على يد المستعربين عبر مدارس الترجمة أو من خلال هجرتهم من البيئة الإسلامية إلى الغرب اللاتيني؛ إذ كانوا مسلمين حضاريا ومسيحيين فكريا وروحيا. وكان "النقل يجري من العربية أولًا إلى القشتالية ثم منها إلى اللاتينية، حيث كثرة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية بفضل عناية ملك قشتالة – الفونسو الحكيم – وذلك بهدف أن يجعل من اللغة القشتالية موازية للغة اللاتينية، لكي تنتقل من المحلية إلى الأوربية، في حين كان في السابق تتم الترجمة في معظمها من العربية إلى اللاتينية، أما العهد الجديد فكان نقطة تحول في الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية فعلى سبيل المثال قام هرمان الألماني (ت:٦٧١هـ/١٢٧٢م) في عهد هذا الملك بترجمة عدد من الكتب إلى اللغة القشتالية من كتاب (الكيمياء) المنسوب إلى (ابقراط)". (٢) ولم يكن المترجمون بمستوى واحد؛ لذا تفاوتت ترجماتهم تبعًا لتمكنهم من اللغات التي ينقلون منها أو إليها، وتنوعت الترجمة ما بين الترجمة بالمعنى والترجمة الحرفية التي تلتزم ترتيب الجملة العربية، مما أدى إلى دخول ألفاظ عربية في اللغة العلمية والفلسفية.

---

(١) ينظر: الترجمة في الأندلس ودورها في النهضة الأوربية الحديثة– د/ مصطفى داودي صـ ١١٨.

(٢) ينظر: حركة الترجمة في الأندلس ودورها في التقدم العلمي الأوربي صـ ٧، نقلا عن: الترجمة من العربية– هدى بنت جبير صـ٢٧٢، والترجمة في الأندلس ودورها في النهضة الأوربية الحديثة صـ ١١٨.

فالبواكير الأولى للترجمة وبدايات الجهود في الأندلس بدأت في أواسط المائة الثالثة من الهجرة، وقد تظافرت عوامل عدة لترتقي بحركة الترجمة من العربية الى اللغات اللاتينية والإسبانية والقشتالية ... إلخ في بلاد الأندلس، ففي الأندلس كانت اللغة العربية هي التي يتسابق على تعلمها اليهود والنصارى كونها لغة الثقافة والأدب، ولعل أقوى دليل على هذا القول ما ذكره القس الأندلسي (الفارو) خلال حكم المسلمين للبلاد معترضًا على الشباب من بني جلدته من نصارى قرطبة من إقبالهم الشديد على تعلم اللغة العربية واقتناء مدوناته بقوله: "يا للحسرة إن الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية آدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها في فنهم، وهم ينفقون أموالًا طائلة في جمع كتبها.. ويا للألم لقد نسي النصارى لغتهم". (١) أما اليهود – (ويعود استيطانهم فيها إلى عصر الإمبراطورية الرومانية وخاصة في مدن قرطبة وطليطلة وغرناطة وسرقسطة وبرشلونة، وقد عاشوا في الأندلس في ظل التسامح الإسلامي واندمجوا بسرعة في المجتمع الإسلامي واستعربت ألسنتهم، وتولوا مناصب كبرى هناك، واشتهر كثير منهم بالعلم والأدب) – فقد كان لهم دور بارز ومؤثر في حركة الترجمة في الأندلس وفي رحلة المعرفة العربية والإسلامية إلى الغرب، فقد اضطلع اليهود بدور ملحوظ في الحياة العلمية والثقافية في الأندلس، وكانوا من عوامل نشر الثقافة العربية والإسلامية في الغرب، وقد نشروها بأنفسهم باتصالهم بالمسيحيين أو من خلال تزويد الغرب بالكتب والمصادر الإسلامية وإسهامهم في حركة الترجمة في القرون الوسطى، وكانوا وسطاء لنقل الثقافة الإسلامية إلى أوروبا فكثير منهم يكتب بالعربية، وحين هاجروا من الأندلس حملوا معهم الكتب العربية وترجموها للعبرية، وكان دورهم قد برز أيضا حين لجأوا إلى جنوب فرنسا وأقاموا في بروفانس وأسسوا المكاتب والمدارس في مونبليه، وأخذوا يدرِّسون فيها الطب والرياضة

(١) ينظر: حركة الترجمة في الأندلس ودورها في التقدم العلمي الأوربي ٦ – ٥٨ / ١٢ – ١٤م – د/ حكيم احمد مام بكر صـ ٢ وما بعدها بتصرف.

والنبات على طريقة العلماء العرب، كما درّسوا فلسفة ابن رشد التي تتلمذ عليها بعض اليهود. فبعد فتح الاندلس على أيدي المسلمين استطاع اليهود التأقلم مع الوضع الجديد واختلطوا مع مفردات الحضارة الإسلامية فسارعوا إلى تعلم اللغة العربية والعلوم المختلفة وبدأوا يستخدمون مناهج البحث السائدة لدى علماء المسلمين في كتاباتهم، وكانوا يعلمون اللغات المحلية واللغة اللاتينية، وبالنظر لما كانوا يتمتعون به من بعض الخصال والخصوصيات كان الملوك والأمراء النصارى يستدعونهم بين الحين والآخر إلى بلاطاتهم فكانوا موضع تقدير عندهم، وخاصة في بلاط الفونسو السادس الحكيم الذي نجح في الاستفادة من كفاءاتهم لترجمة الكتب والمحطوطات العربية، .... وكان هؤلاء اليهود يترجمون الكتب من العربية إلى اللاتينية وفي كثير من الأحيان كانوا يترجمون الكتب إلى اللغة العبرية وخاصة نتاجات اليهود المكتوبة بالعربية، هذا علاوة على ترجمة القسم الأكبر من شروحات المسلمين على الكتب العلمية والفلسفية. (١)

فاليهود قاموا بدور رئيس في نقل التراث العربي إما إلى اللاتينية مباشرة أو بترجمته إلى العبرية والقشتالية وغيرها ليترجم مرة أخرى إلى اللاتينية أو بالتعاون مع العلماء العرب والمستعربين في الترجمة من العربية إلى اللاتينية.... والجدير بالذكر أنه كان هناك أسر يهودية بكاملها في صقلية تخصصت في الترجمة للتراث العربي. (٢)

أما عن أثر الترجمة والنقل في الدراسات اللغوية كمظهر من مظاهر التأثير والتأثر بين العرب القدامى والغرب: فإن الدراسات اللغوية العربية القديمة انتقلت

---

(١) ينظر: حركة الترجمة في الأندلس ودورها في التقدم العلمي الأوربي ٦ – ٨ه/ ١٢ – ١٤م صـ ١٠، نقلا عن: إسبانيا في تاريخها المسيحيون والمسلمون واليهود – كاسترو، اميركو – ترجمة/ إبراهيم منوفي – المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة، ٢٠٠٣ صـ ٥٤٤.

(٢) ينظر: الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي (نقد العقل التاريخي) صـ ١٣٩ وما بعدها بتصرف.

إلى الغرب عن طريق ترجمة الأعمال اللغوية العربية إلى العبرية واللغات الأوربية في العصر الأندلسي. (١) حيث أقبل يهود الأندلس على الثقافة العربية إقبالا شديدًا ونهلوا من ينابيعها العذبة، واختاروا اللغة العربية لغة تأليف وتواصل وتعبير. إن ازدهار الدراسات اللغوية العبرية بعد ظهور الإسلام، كان النموذج العربي هو الذي احتذاه العبرانيون ثم طوروه. "فلم يعرف اليهود النحو إلا في العصر الوسيط بعد حصولهم على الاستقرار في ظل الخلافة العربية الإسلامية في الأندلس وهو ما يعرف عندهم بالعصر الذهبي محاكاة للعرب، وظهرت المعاجم العبرية لأول مرة تأثرًا بمناهج علماء المعاجم من العرب والمسلمين. (٢) وقد وضح أحد الباحثين المحدثين هذا التأثير بقوله: "إذا كان تأثر النحو العربي بنحو اللغات الأخرى يفتقر إلى الأدلة العلمية والبراهين الدالة المثبتة له زمانيًا ومكانيًا، فإن الحال مختلفة بخلافه؛ أعني بذلك تأثير النحو العربي في غيره من نحو اللغات الأخرى، فإثبات الاتصال المباشر وغير المباشر لنحاة اللغات الأخرى بالنحو العربي أمر غاية في اليسر؛ سواءٌ أكان ذلك بالتجاور المكاني أم بالمعاصرة أم التأخر عنها، فقد كان كثير من أعلام النحاة في اللغات الأخرى يعيشون في البلاد الإسلامية بعد نضج النحو العربي، وكثير منهم تتلمذوا على أيدي النحاة العرب، وقرؤوا عليهم كتبهم، مثل يوحنا بن هارون الملطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ ه) وهو سرياني ألف كتاب "الأشعة" على غرار كتاب "المفصل" للزمخشري(ت ٥٣٥ ه)، كذلك تأثر نحاة القبطية بالنحو العربي كابن كاتب قيصر والشيخ الوجيه القليوبي الذي اشتكى من اعتماد النحاة الأقباط على نحو العربية اعتمادًا تامًا في الكليات والجزئيات، وكذلك تأثر نحاة اللغة العبرية الذين عاشوا في بغداد أو مصر أو المغرب أو الأندلس بالنحو العربي، وهم كثر، منهم سعديا الفيومي، وابن حيوج، وابن

(١) ينظر: نظرية التقدير عند النحاة العرب والمسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين تشومسكي مجدد النحو العربي –– د/ جاسم علي جاسم صـ ٤.

(٢) ينظر: تأثير النحو العربي في علم النحو العبري – كفاح صابر رشيد صـ ٢٥٤.

برون، وابن جناح، وغيرهم ممن عاش في البلدان الإسلامية وتتلمذ على أعلامها، لكن رغم هذا التأثير الواسع قلما نجد من يتحدث عن تأثير النحو العربي في نحو اللغات الأخرى، وإن وُجد فلا يتجاوز الإشارات المقتضبة، مع أن هذا الأثر قد تجلى واضحا بيناً في النحو العبري الوسيط في الأندلس، فقد كانت العبرية لغة فقيرة لا تتجاوز مفرداتها عشرة آلاف كلمة، وتغلب عليها المفردات الدالة على البداوة والبعد عن التحضر والعمران والتجارة والمهن، ولم تكن لها آدابٌ معروفة، وليس لها نحوٌ يضبطها، ولم تتجاوز دراساتُ أهلها وجهودهم حدود التوراة، وتعد فترة حكم العرب في الأندلس الأرض الخصبة التي نبت ونشأ فيها النحو العبري والآداب العبرية عامة، بل ربما لم يُضف العبريون لاحقًا على ما جاء به النحاة اليهود العرب في تلك المرحلة. جدير بالذكر أن هذا النحو العبري كله قد كتب باللغة العربية، ولم يترجم إلا بعد سقوطِّ الأندلس وهجرةِّ اليهود إلى أوروبا". (١)

وتشير المصادر إلى أن أعمال يحيي بن داود الفاسي المعروف بـ(حيوج) وغيره من النحاة اليهود الذين عاشوا في الأندلس في تلك الفترة ومنهم مروان بن جناح – إمام النحاة العبريين – وشموئيل هناجيد كانت أغلب أعمالهم قد كتبت باللغة العربية اليهودية ثم تم ترجمة هذه الأعمال إلى العبرية بداية من القرن الثاني عشر، وساهم إبراهيم بن عزرا وموسى بن عزرا في هذه الترجمات، وكانت هذه الأعمال سببا في نشأة علم المعاجم في الغرب وما هي في الأصل إلا مجرد محاكاة ونقل لما درسوه وتعلموه على أيدي النحاة العرب في العصر الوسيط. (٢) فالبداية الفعلية للنحو العبري برزت مع احتكاك اليهود بالثقافة العربية وآدابها، فقد لاحظ اليهود مدى اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم وانكبابهم على تفسيره وشرح عباراته وتحديد مواضع الإعجاز فيه باعتباره النموذج الأعلى، "وقد ذكرت دائرة المعارف

(١) ينظر: من آثار النحو العربي في النحو العبري في الأندلس – د/ محمد خالد الرهاوي صـ ١٤٤، وأثر سيبويه في نشأة النحو العبري – د/ حسن ظاظا صـ ٩١ وما بعدها.

(٢) ينظر: تأثير النحو العربي في علم النحو العبري – د/ كفاح صابر رشيد صـ ٢٥٤.

اليهودية في المجلد السادس صفحة ٦٧ بأن اليهود لم يؤلفوا كتابا في قواعد لغتهم إلا بعد تتلمذهم على يد العرب، وبعد أن نشئوا في مهد الثقافة العربية نشأة مكنتهم من فهم العلوم العربية على اختلاف أنواعها، عند ذلك بدأ اليهود يتجهون نحو وضع قواعد للغتهم متبعين في ذلك الطرق التي اتبعها علماء النحو العربي". (١)

فقد مثل النحو العربي مصدرًا مهمًا للنحاة اليهود في الأندلس؛ لما يوفره من أدوات متنوعة ومناهج تتسم بالعلمية في دراسة الظاهرة اللغوية وتحليلها على عدة مستويات، إضافة إلى استثمار النحو العربي لمعطيات العلوم الأخرى والتي جعلته ثريًّا ومنفتحًا في الوقت نفسه. ومن هنا نقول: إن النحو العربي قد أثر تأثيرًا واسعًا في الدراسات اللغوية الغربية عامة وفي النحو العبري في الأندلس على وجه الخصوص، بل إن النحو العبري آنذاك ليس إلا نحوا عربيا ضربت له بعض الأمثلة من اللغة العبرية، أو كيف على اللغة العبرية، وبواسطة العبرية ترجمت الكثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية– وبواسطة هذا التأثر وضعت بعض النظريات اللسانية الحديثة كالنظرية التوليدية التحويلية التي اعترف واضعها تشومسكي بتأثره بما كتبه الخليل وسيبويه عبر المترجمات العبرية.

أما في ترجمة العلوم الأدبية فقد دخلت أنماط من الأدب العربي إلى أوروبا كانت مظهرا من مظاهر الحركة الثقافية هناك؛ حيث ضاق الأوروبيون ذرعًا بالقيود التي تفرضها عليهم الكنيسة، ونشدوا في الأصقاع الإسلامية ما يغنيهم عن فقر أدبهم وزيفه.. وقد ذكرت من قبل أن الترجمة الأدبية كنوع خاص من الترجمة، قد ظهرت إرهاصاتها في صقلية والأندلس خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين حيث إن أكثر ما ترجم من الأدب إجمالا في هذين القطرين، كان في الغالب ما يتعلق بالشعر والقصة، على غرار حكايا كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة،

---

(١) ينظر: **أعمال حيوج النحوية دراسة تأصيلية مقارنة في ضوء النحو العربي** – رسالة دكتوراه ٢٠٠٩م – كلية الآداب اللغات الشرقية، جامعة الإسكندرية للباحثة / وفاء محمود عبد الجليل محمود الشناوي (الملخص).

والسندباد وقصة حي بن يقظان. وأن هذه الحكايات كان لها أثر الواضح في الأدب الأوروبي مما مهد للنهضة الفكرية الأوروبية وبزوغ فجر الأدب الأوروبي الذي نجد فيه من سمات الأدب العربي الكثير، وما كان ذلك ليكون لولا عملية الترجمة عن العربية.

ولم تقتصر عملية الترجمة فقط على نقل الأعمال والكتب التي ألَّفها العرب، بل كذلك الكتب التي ألفها اليهود، وكانت اتجاهات الترجمة تنحو نحو الشعر والقصة أكثر من غيرها، وبعضها انتقل إلى أوروبا بالتناقل الشفوي للقصص العربي ذات المغزى الأخلاقي وبعض قصص ألف ليلة وليلة، وظهرت بعض التأثيرات العربية في الروايات المشهورة مثل دون كيشوت والكوميديا الإلهية.

وقد مرت حركة الترجمة بشكل عام في بلاد الأندلس بأربع مراحل أساسية:

المرحلة الاولى: نقل الفكر(الإغريقي) اليوناني، والهندي والفارسي إلى اللغة العربية من اللغة اليونانية، إما مباشرة أو عن طريق اللغة السريانية. (فالسريانية – في الغالب – كانت مجرد لغة وسيطة بين العربية واللغات الثلاث الأخرى؛ لتيسير نقل علومها ومعارفها الحضارية).

المرحلة الثانية: نقل الثقافة الإسلامية باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية مباشرة.

المرحلة الثالثة: نقل الثقافة الإسلامية واليهودية باللغة العربية إلى اللغة العبرية.

المرحلة الرابعة: نقل الثقافة الإسلامية واليهودية باللغة العربية الى اللغة اللاتينية.[1]

ومن هنا نستطيع القول: إن العقل التاريخي العربي تملكه الغرب عن طريق الترجمة اللاتينية وتم تمثله من خلال الصراع معه لمدة تزيد على خمسة قرون، وهو العقل المكتوب الذي اعتمدت عليه الجامعات الأوربية بعد ترجمته إلى اللاتينية، وللتحقق يمكن الرجوع لمحاولة فهم هذا العقل من خلال مؤلفات العصر الوسيط بصورة خاصة التي تذكر فيها أسماء الكتب العربية وأسماء أصحابها ونصوصها، فقد أخذ ديكارت وكانط – كما سبق أن ذكرنا – بنظرية العقل كما

(١) ينظر: مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين – د/ علي بن إبراهيم الحمد النملة صـ ١٣، ١٤.

وضعها الإمام الغزالي، وكان لهذه النظرية دور رئيس في بناء النظرية التحولية التوليدية، ونظرية القواعد الكلية اللتان وضعهما تشومسكي.

وجملة القول: إن العربية كانت في العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف الفنون والعلوم، لكن منذ أوائل القرن الماضي انعكست الآية فصار المترجمون من أبناء العرب يترجمون الكتب من الإيطالية والفرنسية في العلوم المختلفة فأحدث ذلك انقلابا كبيرا في العربية وطرق التفكير وكان لإنشاء مدرسة (قصر العيني) في القاهرة أثر كبير على اللغة العربية إذ قام فيها الأساتذة ونقلوا بعض ما كان ضروريا آنذاك للطلبة من العلوم العصرية إلى العربية ووضعوا مصطلحات علمية تقابل المصطلحات الغربية فكان لهذا المجهود العلمي الكبير أثر فعال ليس في مصر فحسب بل في الشرق العربي أيضا، وصحب ذلك نهضة علمية أخرى في سوريا ولبنان نقلت فيها الكتب العلمية إلى العربية واتسعت هذه الحركة على يد نخبة من الأساتذة وأرباب النشر والصحف.

ومما يجب التنبه إليه أن نقطة البدء أو البذرة الأولى لما يسمى الآن بالحداثة تكمن في الاستعمار الغربي بأشكاله المتنوعة العسكرية والفكرية، فقد دخل الغرب مستعمرا لعالمنا العربي من النافذة التي تدفقت منها منجزاته الحضارية، وهو ما أدى إلى انشطارات الذات زمانيا نحو الماضي، ومكانيا نحو الغرب، انطلاقا من الأيدلوجية الفكرية للباحثين والدارسين، وكذا الخلفية اللغوية المرتبطة بالدين والتراث. فالاستعمار والبعثات الخارجية إلى بلاد الغرب كانا سببًا رئيسًا في وصول الكثير من النظريات اللغوية الحديثة إلى الدراسات اللغوية العربية الحديثة وقد تم قبولها جميعًا عند البعض حتى ما يتعارض منها مع لغتنا وديننا وثقافتنا وتراثنا وقيمنا، كالنظرية البنيوية التي سبق الحديث عنها ووضحنا كيف تبناها بعض المحدثين من علمائنا المتشبعين بثقافة الغرب من دون وعي أو تدبر بتعارضها مع لغتنا وتراثنا، وبعضها أصيل في دراسات علمائنا القدامى عرضا من دون تنظير أو تأطير، لكن الجهل بتراثنا العظيم تارة أو تجاهله عمدا عند دعاة

الحداثة والتطور تارة ثانية قد تناولوها من دون تأصيل لها وتبنوها على أنها من نتاج العقل الغربي خالصة وكأنهم أحدثوا بذلك فتحا جديدا، وقد أبعدهم ذلك عن الوصول إلى الحقيقة.

فالاعتماد على الترجمة والنقل من المؤلفات الغربية الحديثة مهم في موضعه إذا كان لا يتعارض مع ديننا وثقافتنا ولغتنا المستمدة من اللغة الخالدة لغة القرآن الكريمة والسنة النبوية الشريفة، فهي نافذة فكرية ومدخل حضاري يضمن لهويتنا القومية المزيد من التواصل مع الآخر في كل مجالات إبداعه. ولا ننكر أن الترجمة كانت سببًا في نقل هذه النظريات ووصولها إلينا وتطبيقها في الدراسات اللغوية والرسائل الجامعية، وعن طريق الترجمة وقفنا على إسهامات المحدثين من علماء الغرب في الدراسات اللغوية والتي يمكن الإفادة منها والنهل منها قدر المستطاع أمثال (فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussur، ونعوم تشومسكي Noam Chomsky) وغيرهما من العلماء الذين أفادوا وأجادوا، إن (فرديناند دوسوسير) بكتابه: "محاضرات في اللسانيات العامة (cours de linguistique générale) – والذي هو ثمرة المحاضرات التي كان قد ألقاها في جامعة جنيف – قد منح اللسانيات الطابع العلمي، فزوَّدها بمصطلحات جعلتها تتجه نحو الدراسة الوصفية، وميز بين اللغة واللسان والكلام، و(نعوم تشومسكي) وهو أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي، وأستاذ لسانيات فخري في قسم اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، يُوصف بأنه "أبو علم اللسانيات الحديث"، وقد أسَّس نظرية النحو التوليدي، والتي تُعتبَر أهمَّ إسهام في مجال اللسانيات النظرية في القرن العشرين، ويعود إليه الفضل كذلك في تأسيس ما يُعرَف بـ "تراتب تشومسكي" ونظرية النحو الكلي، أضف إلى ذلك أن العديد من المقارَبات تكشف لنا اليوم جوانب لم نكن على علم بها في علم اللغة، فعلم اللغة الحديث وقد نشأ عند الغرب يمدنا اليوم بالكثير والجديد الذي يكتشف في الدراسات اللغوية المفيدة والمثمرة من آن إلى آخر.

لكن الأهم هو التدبر وإعمال العقل قي المنقول أو المترجم إلى لغتنا نقدًا ورفضًا، أو قبولا في اعتدال. فالترجمة من وإلى سلاح ذو حدين؛ لأنها كثيرا ما تحمل فكر صاحبها اعتدالا، أو حيفًا وجنوحا كما في أعمال كثير من المستشرقين المبشرين، أو عدم إحاطة بقواعد وأصول اللغة المنقول إليها أو منها كما في "ترجمة كتنز (Ketennses) للقرآن الكريم إلى اللاتينية – على سبيل المثال – والتي انتهى منها ١١٤٣م وقد اعتمد فيها على استخراج المعاني التخمينية من دون تحليل وفهم حقيقي للغة العربية، ورغم استعانته ببعض التفاسير للقرآن الكريم فإنه كان يميل إلى الاختصار وإلى حذف بعض الآيات، ولصعوبة تحديد المعاني اللغوية في القرآن الكريم لا توجد آية واحدة مترجمة تعطى المعنى المقارب لحقيقتها، وقد أصبحت هذه الترجمة أساسًا للترجمات الأخرى وللأحكام المبتسرة عن الإسلام في نظر الغرب إلى يومنا هذا". (١)

فعلى المترجم أن يكون حصيفًا ومُفكِّرًا أيضًا، وأن يوظف ما ترجمه في صقل معارفه والاقتدار على مكامن العلم والإفادة قدر الإمكان من الدراسات اللغوية الحديثة ما لم تتعارض مع تراثنا الخالد. إن التلاقي بين الثقافات والحضارات وتفاعلها لأمر مهم له إيجابياته كما أن له سلبياته، فالحذر الحذر.

(١) ينظر: الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي – صـ ١٤٣ وما بعدها.

المبحث الثالث

الحروب الصليبية ودورها في نقل التراث العربي الى الغرب ومدى التأثر به

شهد الشرق الإسلامي في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حملات جاءت من الغرب الأوربي، وقد اشتهرت دون سواها من الحملات التي شنها البيزنطيون والأوربيون الغربيون على المسلمين بالحروب الصليبية؛ لأنها تمت تحت شعار الصليب وفي أغلب الأحيان بمساعدة الكنيسة. (١) وهي حروب استمرت قرنين من الزمان ابتداء من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي (٤٩٠ه/ ١٠٩٧م) وحتى سقوط آخر معقل للصليبين في أيدي المماليك (٦٩٠ه/ ١٢٩١م) وتعد هذه الفترة من أهم نقاط الاتصال أو نقاط التأثر والنقل والاقتباس، فعلى الرغم من أن الصليبيين قدموا إلى المشرق طلاب حرب لا طلاب علم إلا أنهم تأثروا بحضارة المسلمين ونقلوا ما استطاعوا نقله من إنجازاتهم إلى أوربا التي كانت تعاني من تخلف وانحطاط. وفي نهاية القرن الحادي عشر للميلاد فوجئ المسلمون في الشرق الأدنى بموجة ضخمة من الغزاة الأوربيين يقتحمون بلاد الشام ويحاولون بسط سيطرتهم على العراق ومصر غربًا والحجاز جنوبًا، وقد سميت هذه الغزوات باسم الحروب الصليبية؛ لأنهم حملوا الصليب واعتبروها حروبًا دينية مقدسة تحت شعار الصليب. وكانت بداية هذه الحروب التي شنها الغرب الأوربي ضد المسلمين في الأندلس وفي جزيرة صقلية، وقد شارك فيها البابوات وحرضوا عليها. فـ "كان الفونسو السادس قد طمع في الأندلس الإسلاميّة، وعتا وتجبّر، وقطع عهوده مع أمرائها وملوكها، وجاءته بركات البابا، وتدفقت عليه جموع النّصارى الفرسان من مختلف أجزاء أوربا، فعاث في الأندلس الإسلامية فسادًا حتى وصل الجزيرة، وأعلن تحديه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ثم توجّه بقواته لمحاربة أمير سرقسطة ابن هود، وحاصرها، وألحّ عليها،

(١) ينظر: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية – عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي صـ ٢٢ بتصرف.

وقاومت ببسالة. وعندما تأكّدت لديه أنباء عبور المجاهدين، رفع الحصار تاركًا أمر تصفية حسابه مع سرقسطة إلى ما بعد إيقاف هذا الزّحف، وحشد القوات النّصرانيّة من جيليقية، وليون، وبسكونية، واشتورِيش، وقشتالة، وكاتب ملك اراغون شانجه بن ردمير صاحب بنبلونة وكان مشغولا بمحاصرة طرطوشة، فانضمّ إليه بقواته، وكاتب الكونت برنجار ريموند الذي كان يتأهب لغزو بلنسية فانضم إليه بقواته. وطلب النجدات من أمراء ما وراء البرت فلحق به سيل من الفرسان والمتطوّعين الفرنجة والألمان والإنكليز والإيطاليين، فأصبح جيشه كبيرًا متفوّقًا في العُدَة والعَدَد والإمكانيات، واتّخذت المعركة شكل الحروب الصّليبيّة، فقد رفع القسّيسون والرّهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم أمام القوات النّصرانيّة، وباركها البابوات وحثّوا عليها، ووجّهوها، بل تبايع رهبانهم على الموت". (١) ثم اتجهت إلى الشرق وبلاد الشام في نهاية الفرن الحادي عشر حيث كانت الحملة الصليبية الأولي إلى الشام في ١٠٩٧م وقد نجحت في تثبيت أقدام الصليبيين في الشام وشمال العراق مما ترتب عليه قيان ثلاث إمارات صليبية كبرى هي إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس، فضلا عن تأسيس مملكة صليبية في بيت المقدس. (٢)

ولقد اشترك في تكوين المجتمع الصليبي في بلاد الشام عدد كبير من الرجال والنساء من جنسيات أوربية مختلفة وطبقات اجتماعية فالجيوش الصليبية التي توجهت إلى بلاد الشام قد ضمت فئات من عناصر أوربية متنوعة أهمها: الفرنسيون والنورمان والإنجليز والنمساويون والبلغار والنرويجيون وغيرهم. وهذا التنوع اللغوي والحضاري في المجتمع الواحد لا بد أن ينتج عنه صراع لغوي ينتج عنه تأثير وتأثر. فاللغات تتداخل كلما اتصلت إحداها بالأخرى بصورة مباشرة أو غير مباشرة فينتج عن ذلك تأثير وتأثر بين اللغتين ضرورة سواء كتب لإحدى

(١) ينظر: الزلاقة معركة من معارك الإسلام الحاسمة في الأندلس – جميل عبد الله محمد المصري صـ ١٨٩.

(٢) ينظر: أضواء جديدة على الحروب الصليبية – سعيد عبد الفتاح عاشور صـ ٢٣: ٢٥ بتصرف.

اللغتين الانتصار على الأخرى في هذا الصراع، أو عاشت اللغتان جنبًا إلى جنب لقوتهما، وهذا ما أكده الفرنسي جويف فندريس (Vendryes) حيث ذكر "أن تطور اللغة مستمر في معزل عن كل تأثير خارجي، يعد أمرا مثاليا لا يكاد يتحقق في أية لغة، بل على العكس من ذلك، فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها، كثيرًا ما يؤدي دورًا هاما في التطور اللغوي، ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية، واحتكاكها يؤدي حتمًا إلى تداخلها". (١) وأهم ناحية يظهر فيها التداخل هي الناحية المتعلقة بالمفردات أين تنشط حركة التبادل بين اللغات ويكثر اقتباسها بعضها من بعض. ولهذه الظاهرة اللغوية عواملها التي يتتبعها الدارسون عبر مسيرة الصراع اللغوي بين اللغات من أجل البحث عن الأسباب التي تجعل لغة ما أكثر انتشارًا من لغة أخرى ودرجة صمودها أمام غزو اللغات الأخرى لها. ومن بين هذه العوامل ذكر عبد الصبور شاهين أن العامل الحضاري والثقافي للغة هو الأهم في التأثير والتأثر بين اللغات، والعامل الثاني هو كثرة الناطقين باللغة. (٢) ويمكن حصر تلك الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى التأثير والتأثر بين اللغات كالتالي:

أ. الغلبة في الصراع، والانتصار في الحرب، والمقهور مولع بتقليد الغالب، وخاصة إذا كان للمنتصر حضارة وثقافة ورقي وليس للمنهزم شيء من ذلك. "فقد كانت اللاتينية قديما إحدى لغات الفرع الإيطالي من مجموعة (الهندو أوربية)، محضرة في منطقة ضيقة من إيطاليا، وأصبحت بعد انتصارها في الصراع لغة رسمية لكل من: إيطاليا، والبرتغال، وإسبانيا وفرنسا، والألب، وألبانيا. (٣)

ب. الهجرة القومية المكثفة، أو الاستعمار سبب رئيس من أسباب التأثير والتأثر وانتشار اللغات. إذ تتأثر اللغات بالاحتكاك عن طريق المجاورة

(١) اللغة – فندريس – ترجمة/ عبد الحميد الدوالي ومحمد القصاص صـ ٣٤.

(٢) دراسات لغوية القياس في الفصحى والدخيل في العامية – د/عبد الصبور شاهين صـ ٢٢٦.

(٣) علم اللغة العام – د/ توفيق محمد شاهين صـ ١٢٩ – ١٣١.

أو التجارة، وكذلك أثناء الحروب فالإنجليزية والفرنسية والألمانية، والبرتغالية – مثلا – تتقارض المفردات وتأثرت كلها أيضا ببعضها بسبب الحروب التي قامت في أوربا. والحروب الصليبية نقلت إلى اللغات الأوربية، كثيرا من الألفاظ العربية قد تعد بالآلاف؛ وذكر بعض العلماء أن الإسبانية أخذت من العربية أكثر من أربعمائة لفظة في شؤون البحرية وحدها. (١) وقد توفرت هذه الأسباب مجتمعة في الحروب الصليبية.

أما عن أثر الحروب الصليبية في نقل التراث العربي إلى الغرب: فإننا نلاحظ أنه قد نتج عن هذه الحروب علاقات ثقافية وحضارية بين الغرب والغرب مما كان له أثره العميق في التبادل والتأثير والتأثر. لقد ترك الاحتكاك المباشر بين المسلمين وهذه الشعوب أثرًا إيجابيًا لافتًا، فقد جاء التواصل الصليبي مع المسلمين في الشام والأندلس وصقلية. وشكلت هذه البقعة الجغرافية جسرًا حضاريًا غريبًا، وكان الأثر الحضاري لهذه الحروب فنيًا وصناعيًا وتجاريًا أكثر منه علميًا أو أدبيًا؛ فقد كان الأوروبيون الذين أقاموا في الشام في الإمارات التي أنشئوها يعيشون داخل حصون وسكنات عسكرية، وكان اتصالهم بالزراع الوطنيين والصناع أكثر من اتصالهم بالطبقة المثقفة. على أنهم مع ذلك استفادوا علميًا. (٢) فبعض دول أوروبا — ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولندة وروسيا — أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتبًا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين .... والغالب أن معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الأمة في برلين هي من بلاد الشام. وفهرس هذه الخزانة من الكتب العربية فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق. وتكون فهارس الكتب العربية ً في خزائن الغرب اليوم خزانة برأسها .... وإن أمما عرفتنا أكثر مما عرفنا أنفسنا حتى قال أحد علمائهم: إن العرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع

(١) علم اللغة العام – د/ توفيق محمد شاهين صـ ١٢٩ – ١٣١.

(٢) ينظر: أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية صـ ٢٣٣-٢٤٩.

أحدنا أن يقرأه طول عمره، لجديرون بإرث الشرق في مادياته ومعنوياته. (١) وكذا انتقلت منجزات العلوم الإسلامية بالترجمة كما حصل في طليطلة الأندلسية إبان سقوطها بيد الإسبان الذين كانوا يرون في أنفسهم صليبيي الغرب، حيث أصبحت المدينة التي بقي فيها أهلها من المسلمين إلى جانب اليهود والوافدين الجدد من النصارى، مركز بحث علمي ودار نشر موسعة تترجم نفائس العلم والفكر.

لقد كانت الهجمات الصليبية على بلاد الأندلس وسيلة اتخذها رجال الكنيسة للقضاء على الوجود الإسلامي ليس فقط سياسيًّا، ولكن عقائديًّا وثقافيًّا وقد استدعى ذلك ضرورة الاطلاع على المعارف الإسلامية في شتى المجالات. فلقد كانت الهجمات الصليبية على بلاد الأندلس بمثابة عامل اتخذها رجال الكنيسة من أجل القضاء على الوجود الإسلامي، حيث قاموا بالاطلاع على معارف الإسلام وعلومه من الوجود وما نقل إلى اللغة العربية من العلوم القديمة من جهة ثانية، وهذا ما كشف عنه أحد رجال الكنيسة وهو الفارو القرطبي حيث عاب على إخوانه في الدين اهتمامهم بالتراث العربي لاكتساب أسلوبه الجميل الذي يعتبر الغاية التي كان يخطط لتحقيقها رجل الكنيسة في إطار المشروع الثقافي للصليبية في هجوماتهم على الإسلام والمسلمين بالأندلس. وهو ما وضحناه سابقا.

حقًا لقد كان الغرب اللاتيني يقف وقفة إعجاب من منجزات علماء الإسلام، بحيث برزت بعض الفئات التي أدركت جيدا أهمية المعارف العربية من بينها: الملوك والأمراء ورجال الدين فالملوك والأمراء كان اهتمامهم بالتراث الإسلامي واضحا في قصور وبلاطات أوروبا من بينها بلاط طليطلة في عهد ملك قشتالة ألفنسو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم وجمع في بلاطه طائفة من العلماء المسلمين والنصارى واليهود الذين اجتهدوا في نقل وترجمة معظم المعارف الإسلامية ، كما أسهم بلاط برشلونة في عملية الترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية، حيث كان خايمي الأول

(١) ينظر: اللغة العربية في أوروبا – فيليب دي طرازي صـ ٣٥، ٣٦

وخايمي الثاني[١] قد سنوا الصلات لمترجميهم ومن ذلك الجائزة المالية السنية التي قدمت ليهوذا إبن سينيور على ترجمته كتاب الطبيب الأندلسي أبي القاسم الزهراوي المسمى " التصريف " إلى اللغة اللاتينية.[٢]

فقد كان وعي رجال الكنيسة بأهمية ومكانة العلوم العربية الإسلامية أكثر من بقية المجتمع الأوروبي؛ لأنهم كانوا الأسبق في اقتناء المعرفة العربية والإسلامية، حيث كان هناك من القساوسة من دفع أموالا طائلة لاقتناء العديد من الكتب العربية. فالمجتمع الغربي قد اكتشف أهمية الشرق ومعارفه وعلومه منذ العصور الوسطى، ونقل ذلك التراث نقلًا لا يظهر فيه التصرف إلا في تجاهل ذكر المؤلفين الحقيقيين، وعن طريق ذلك خطت أوروبا خطواتها التاريخية في مجال النهضة المعروفة بالنهضة الأوروبية، وبذلك الفكر وعلى هديه أخذت أوروبا منهج التطور العلمي وبنت لنفسها الشخصية العلمية الرائدة. وأدرك الغرب من خلال حروبه الصليبية أن الشرق يتفوق عليه فكريًا وحضاريًا واقتصاديًا، وأنه يجب على الغربيين أن يسيروا في نفس الطريق الذي سارت فيه شعوب الشرق، لكي ينهضوا ويتقدموا. وهذا ما أكده المؤرخ الأستاذ/ هَرْنشو (Hearnshaw ١٨٦٩ - ١٩٤٦) في قوله: "خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة". (٣) ويقول جوستاف لوبون: "إن تأثير الشرق في تمدين الغرب كان عظيما جدا بفعل الحروب الصليبية، وإن ذلك التأثير في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب، وإذا نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية باطراد بين الشرق والغرب وإلى ما نشأ من تحاك الصليبيين والشرقيين من النمو في الفنون والصناعة نجلى لنا أن الشرفيين عم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس إلى التقدم

(١) أوخايمي الفاتح هو ملك آراغون ويلنسيه تولى الحكم وهو طفل وتوسعت مملكة آرغوان في عهده في جميع الاتجاهات كما وقع عقد مع لويس التاسع ملك فرنسا معاهدة فصل بموجبها كوستية برشلونة عن السيادة الاسمية لفرنسا وضمها إلى تاجة، أما خايمي الثاني أو العادل فكان ملك صقلية (١٢٨٥م- ١٢٩٦م) وملك آراغون وفالنسيا وهو ابن يتدر والثالث ملك آراغون وصقلية.

(٢) ينظر: ياقوتة الأندلس - حسن الواركلي صـ ١٦.

(٣) علم التاريخ – هرنشو - ترجمة/ عبد الحميد العبادي صـ ٣١.

بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوربا تعول عليها، فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم". (١)

كما كان من أثر الحروب الصليبية العلمي اهتمام الأوروبيين بتعلم اللغة العربية؛ لأنهم وقد فشلوا في نشر الديانة المسيحية بحدّ السيف رأوا أن تعلم اللغة العربية يمكنهم من التخاطب مع الشرقيين ونشر المسيحية بينهم باللين والإغراء. (٢) وقد تعلم كثير من الإفرنج – (اسم لسكان أوروبا ما عدا الأروام والأتراك) – القادمين اللغة العربية؛ ليتمكنوا من التخاطب مع السكان في المتاجر والمناسبات المختلفة وقد رأى ابن جبير (ت: ٦١٤هـ). وهو رحالة أندلسي في عكا كُتاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى يتكلمون العربية ويكتبون بها. (٣) وقد وردت إشارات في المصادر العربية تدل على أن بعض الأمراء الإفرنج كانوا يتعلمون اللغة العربية ويتثقفون بالثقافة الإسلامية، ويناقشون الأمور الدينية فيقول ابن واصل عن أرناط ملك الفرنج بالكرك "كان عارفاً بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث. (٤) وكان ريموند الثالث أمير طرابلس يتقن العربية وتعلمها أثناء وقوعه في الأسر في حلب. (٥)

وقد برع بعض الإفرنج في الترجمة من العربية وإليها، مثل ابن الهنغري الذي كان يترجم بين الملك العادل وملك الانجليز عندما كانا يتحدثان في الصلح "وهو من فرنج الساحل من كبارهم. (٦) ويكتب لنا كاتب سيرة القديس لويس أن عددًا من الإفرنج كانوا يعرفون العربية، ولما أرسل رئيس طائفة الحشاشين وفدًا

(١) حضارة العرب – غوستاف لوبون صـ ٣٤٩ ٢٠١٣م.

(٢) ينظر: أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية ص ٢٣٣-٢٤٩.

(٣) رحلة ابن جبير – أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي صـ ٢٧٥.

(٤) المجتمع الصليبي في بلاد الشام – جمعة الجندي صـ ٩٥.

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب – محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل ٢/ ٢٨٢.

(٦) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) – أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد صـ ٢٧٤.

إلى الملك، احتاج الرسل إلى ترجمة من الافرنج لينقلوا الرسالة بواسطتهم. (١) ومن الذين اهتموا بأسرار اللغة العربية وتذوقوا أدبها المؤرخ الشهير "وليم الصوري"William of Tyre مؤرخ الحروب الصليبية البارز، وكان سليل أسرة من المستوطنين الغربيين، الذين استقروا في فلسطين بعد الغزو الصليبي لها. وهو رجل فرنسي مولود في فلسطين وقد أفاض في كتاباته بالحقد على الإسلام والمسلمين، نشأ في الشرق وتعلم اللغة العربية وأجاد القراءة والكتابة بها إجادته اللاتينية. (٢) وتعلّم اللغات الفرنسية، واللاتينية واليونانية والعربية وقليلًا من اللغة العبرية؛ وكتب بلغة لاتينية سليمة كتابًا هو خير ما يعتمد عليه من المصادر في تاريخ الحملات الصليبية الأولى، وسمّاه تاريخ حوادث ما وراء البحار. (٣)

وكذلك كان للحروب الصليبية دور مهم وبارز في التعرف على الدراسات اللغوية العربية، حيث تعرفت دول غرب أوروبا على الحضارة الإسلامية بشكل أعمق وأعرض، وتركت في حضارة أوروبا في عصر النهضة سمات ودلائل تشير إلى التأثر بالحضارة الإسلامية والنقل عنها حيث ظلت مؤلفات العلماء المسلمين هي المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا حتى القرن التاسع عشر، واعترف عدد كبير من مؤرخي العالم بفضلهم على العالم والإنسانية حتى قال قائلهم: إنه لولا أعمال العرب لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء، ولتأخر سير المدنية عدة قرون. وحتى قال آخر: إن كثيرًا من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا، فإذا العرب سبقونا إليها. وكذا قول غوستاف لوبون: "لم تكن الحروب الصليبية التي كان يتمخض عنها العالم سوى نزاع عظيم بين أقوام من الهمج وحضارة تعد من أرقي الحضارات التي عرفها التاريخ". (٤)

---

(١) القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام (مذكرات جوانفيل) – جوانفيل صـ ٢٠٥.

(٢) المجتمع الصليبي في بلاد الشام – جمعة الجندي صـ ٩٥.

(٣) قصة الحضارة – ول ديورَانت – ويليام جيمس ديورَانت ١٧/ ٢٣٠: ٢٣١.

(٤) أثر المشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية صـ ٣٩ نقلا عن كتاب: حضارة العرب صـ ٣٤٧.

ومن هنا يتبين لنا أن للحروب الصليبية دورًا مهمًّا في الدراسات اللغوية العربية حيث كانت جسرًا حضاريًا انتقلت عن طريقه الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مُدَّة قرنين من أقوى العوامل على نمو الحضارة في أوربا. إذ "كانت أوربة، ولا سيما فرنسة، في القرن الحادي عرش الذي جُرِّدت فيه الحملة الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلامًا... أن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب..." [١]ويبدو ذلك في:

أ. الاهتمام باللغة العربية ليسهل أمامهم التفاهم والتعرف الدقيق على هذا العالم الإسلامي تاريخه وعاداته وتراثه، إذ أدركوا أن تعلم اللغة العربية أمر ضروري للوصول لأهدافهم الدينية والاقتصادية، وكان هذا سببًا في إهمال اللغة اللاتينية والإغريقية إلى حد كبير وإحياء اللغات الشعبية وصنفت كذلك المعاجم العربية لمعاونة المترجمين والمتعلمين. أما الكنيسة فليسهل على رجالها نشر النصرانية بين المسلمين، والتجار ليسهل عليهم التعامل، والملوك ليقوم بينهم وبين بلدان العالم الإسلامي سفراء يعرفون العربية. فـ "عن طريق دراسة لغة من اللغات يتعرف الباحث على مستوى الأمة الحضاري، ويرصد علاقاتها من خلال الكلمات الدخيلة عليها، إذ إن العلاقات التجارية والسياسية التي قامت وتقوم بين الشعوب تسفر عن تسرب مفردات كثيرة من لغة إلى لغة... وهذا ما حدث للصليبيين الذين وجدوا أنفسهم وسط محيط إسلامي يزخر بحضارة ومدنية فلم يكونوا بمعزل عن ذلك". [٢]

ب. تصنيف معاجم عربية أوروبية تعين المتعلمين للعربية، فصنف المعجم العربي القشتالي سنة ١٥٠٥م، وكتاب "وصف أفريقية "للحسن بن الوزان المشهور بليون الأفريقي، ونشر جيوم بوستل المستعرب الفرنسي كتاب "جمهورية الترك"

(١) ينظر: حضارة العرب صـ ٣٣٢: ٣٥٠.

(٢) ينظر: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية صـ ٥٠ بتصرف.

الذي يعد نواة صالحة اعتمدت عليها أغلب الدراسات العربية واتخذها المستشرقون مصادر أساسية لما قاموا به من دراسات عن الإسلام والعرب.

ج. ترجمة القرآن الكريم إلى عدد من اللغات الأوروبية؛ لتيسير عمل من يقومون بهذه الدعوة أو الدعاية.

د. ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، ليستعين به الداعون إلى النصرانية من جانب، وليكون في متناول المسلمين لقراءته والاطلاع عليه من جانب آخر.

ه. الاستشراق: وهو دراسة تراث الشرق وتاريخه وعاداته وتقاليده، وقد بدأت طلائع المستشرقين تعني بهذه الدراسات منذ القرن العاشر الميلادي إلى يومنا هذا، وكان هدفه التمهيد لغزو أرض المسلمين.

و. إنشاء مكتبات شرقية في أوروبا: مثل مكتبة باريس الوطنية سنة ١٦٥٤م، وفيها حوالي سبعة آلاف مخطوط عربي، ومكتبة جامعة ستراسبرج، ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية.

ز. إنشاء المطابع الشرقية: كمطبعة إيطاليا، ومطبعة فرنسا.

ح. إنشاء المجلات الشرقية: كان للمستشرقين الفرنسيين فيها جهود معروفة، مثل صحيفة العلماء، ومجلة الجمعية الملكية الآسيوية، والمجلة الإفريقية، والمجلة التاريخية، ومجلة تاريخ الأديان وغيرها، وبعض هذه المجلات ما زال يصدر إلى هذا اليوم.

ومن هنا يمكننا أن نعتبر الشرق الإسلامي معبرًا من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا؛ لأن الصليبيين كان لهم مع المسلمين علاقات سلمية كانت بمثابة قناة حضارية أوصلت الأثر الشرقي إلى الأوربيين من خلال الصليبيين العائدين إلى بلادهم. (١)

(١) ينظر: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية صـ ٤١.

المبحث الرابع

شهادات المنصفين من علماء الغرب على تأثرهم بالدراسات العربية والإسلامية

لم تكن الحضارة العربية الإسلامية استمرارًا لتطور حضاري سابق كما زعم المتعصبون في الغرب، وإنما كانت "طفرة" أو "انعطافًا" أو "حدثًا ثوريًا" في تاريخ الحضارات الإنسانية لاسيما في القرون الوسطى، إذ قدمت الحضارة العربية الإسلامية، انجازات علمية وفكرية غير مسبوقة أسهمت في إيقاظ الغرب من ثباته العميق ونقله من عصور الظلام إلى عصر الإشعاع الفكري والحضاري في شتى مجالات المعرفة، وجعلت من علماء الإسلام قادة للفكر ومشعلا للنور والحضارة فعلموا البشرية بأسرها، ولقد اعترف كثير من المنصفين الغربيين بأهمية الحضارة الإسلامية، وإسهاماتها العظيمة في تقدم الإنسانية وتنوير العقول المظلمة في شتى المجالات العلمية أو الفكرية؛ لذا أود أن أبرز هنا شهادة المنصفين منهم على تأثير الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة الأوربية إبان القرون الوسطى بصفة عامة، وشهاداتهم حول تأثيرها في الدراسات اللغوية بصفة خاصة.

أ)- شهادة المنصفين من علماء الغرب على تأثير الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوربية:

لم تَخلُ أوروبا من مؤرخين أبصروا ما للمسلمين من فضل في الحضارة الإنسانية على الحضارة الأوروبية؛ فألفوا كتبًا ودراسات منصفة تشيد بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره، فقد نذكر نفرًا منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها، فمثلًا يقول (توماس أرنولد): "كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتُبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى". ويقول (جورج سارتون) في كتابه "مقدمة في تاريخ العلم": "إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فـ"المسعودي" أعظم الجغرافيين، و"الطبري" أعظم المؤرخين". [1] ويقول مسيو

(١) ينظر: مقدمة في تاريخ العلم – جورج سارتون صـ ٤٥

ليبري: "لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نَهضة أوربا الحديثة عدة قرون". (١)ولقد أشار أيضًا إلى هذا المعنى المؤرخ الفرنسيُّ الشهير (سديو) في تاريخه الكبير، الذي ألفه في عشرين سنة؛ بحثًا عن تاريخ المسلمين وعظيم حضارتهم ونتاجهم العلمي الهائل فقال: "لقد استطاع المسلمون أن ينشروا العلوم والمعارف والرقيِّ والتمدُّن في المشرق والمغرب، حين كان الأوربيون إذ ذاك في ظلمات جهل القرون الوسطى..."، إلى أن يقول: "ولقد كان العرب والمسلمون- بما قاموا به من ابتكارات علمية – ممن أرْسَوا أركان الحضارة والمعارف، ناهيك عما لهم من إنتاج، وجهود علمية، في ميادين علوم الطب، والفلك، والتاريخ الطبيعي والكيمياء والصيدلة وعلوم النبات والاقتصاد الزراعي وغير ذلك من أنواع العلوم التي ورِثناها نحن الأوربيين عنهم. وبحقٍّ كانوا هم معلمينا والأساتذة لنا". (٢) كذلك يُبدي "تومبسون" إعجابه بالعلوم الإسلامية فيقول: "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربيٍّ أوربا بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك". ويقول في مكان آخر: "إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية". وقد أبدى الباحث اليهودي (فرانز روزانتال) إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسموّ الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، فقال: "إن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحقاقًا للتأمل والدراسة في التاريخ، ذلك أن السرعة المذهلة التي تم بها تشكل وتكوّن هذه الحضارة أمر يستحق التأمل العميق، وهي ظاهرة عجيبة جدًّا في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دومًا وأبدًا أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين. ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة، لأنها تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جدًّا ووقت قصير جدًا، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت

(١) ينظر: معالم الحضارة في الإسلام – د/ عبد الله ناصح علوان صـ ١٠٧.

(٢) ينظر: شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية – د/ عماد عجوة صـ ٥٢.

ذروتها حتى قبل أن تبدأ". ويقول المستشرق (أدم متز) في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري): "لا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم، فقد كان في كل بيت مكتبة". ويقول (رينيه جيبون): "لم يدرك كثير من الغربيين قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية، ولا فقهوا حقيقة ما أخذوه من الحضارة العربية في القرون الماضية". ويذكر (هينولد) أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، وأن المسلمين ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء. فقد قام منهاج المسلمين على التجربة والترصد وكانوا أول من أدرك أهمية المنهاج في العالم، وظلّوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلًا.

أما المستشرقة الألمانية الشهيرة (زيغريد هونكة) فترى أن "القفزة السريعة المدهشة في سلّم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من اللا شيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني .... وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة الشعوب المتحضرة الفريدة من نوعها لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها". [1] لقد قدم المسلمون أثمن هدية للبشرية والمتمثلة حسب (زيغريد هونكة) في طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة حيث قالت: "الواقع أن روجر بيكون أو جاليليو أو دافنشي ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي. إنما السباقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجأوا – بعكس زملائهم المسيحيين – في بحثهم إلى العقل والملاحظة والتحقيق والبحث المستقيم.... لقد قدم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم ... وإن كل مستشفى وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقرية العربية .... وقد بقي الطب الغربي قرونًا عديدة نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وعلى الرغم من إحراق

(١) شمس العرب تسطع على الغرب صـ ٣٥٤، وعلماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام صـ١٤٩.

كتب ابن سينا في مدينة بازل بحركة مسيحية عدائية، فإن كتب التراث العربي لم تختف من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء، بل ظلت محفوظة يسرق منها السارقون ما شاء لهم أن يسرقوا". (١) كذا تحدثت عن تأثر الغرب بالعرب في مختلف المجالات العلمية فقالت: "وفي مراكز العلم الأوربية، لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا ومدّ يديه إلى الكنوز العربية هذه يغرف منها ما شاء الله له أن يغرف، وينهل منها كما ينهل الظمآن من الماء العذب؛ رغبة منه في سد الثغرات التي لديه وفي الارتقاء إلى مستوى عصره العلمي. ولم يكن هناك كتاب واحد من بين الكتب التي صدرت في أوربة آنذاك إلا وقد ارتوت صفحاته بالري العميم من الينابيع العربية، وأخذ عنها إيماءاته، وظهر فيه تأثيرها واضحا كل الوضوح، ليس فقط في كلماته العربية المترجمة بل في محتواه وأفكاره". (٢) وكذا يرى (بريفولت) أنه ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية والعربية بصورة قاطعة إذ يقول: "ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مهمة مدهشة ونظريات علمية مبتكرة بل إنه مدين بوجوده ذاته، ولم يكن بيكون إلا رسول من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق، ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية العربية المتميزة انبعاثًا طبيعيًّا من القرآن وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوة العالمية".(٣) في حين يرى (جورج سارتون) "أن المسلمين عباقرة الشرق لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم الدراسات قيمة وأكثرها

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب صـ ١٤٨، ١٤٩، ٢٦٩، ٣١٥، وعلماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام صـ ١٤٩.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب صـ ٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) علماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام صـ ١٤٩، ١٥٠.

أصالة وعمقا، لقد بلغ المسلمون معجزة العلم العربي". (١) ويقول (غوستاف لوبون): "كلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلميـــة، واختراعـــاتهم، وفنـــونهم ظهرت لنا حقائقُ جديدةٌ وآفاقٌ واسعة، ولسُرعان ما رأينـــا أن العـــرب أصـــحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعـــرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدَّنوا أوربـــة مادةً وعقلًا وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصـــير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الابتداع الفنيِّ. وتأثيرُ العرب عظيم في الغرب، وهـــو فـــي الشرق أشد وأقوى، ولم يتَّفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة العالم، كالآشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان، توارت تحـــت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادت أديانها ولغاتهـــا وفنونهـــا لا تكون سوى ذكريات، والعرب، وإن تَوارَوا أيضًا، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حيةً، وينقاد أكثر من مائة مليون شخص مقيمين فيما بين مراكش والهند لشريعة الرسول". (٢) ويذكر المؤرخ الأوربي (مونتجمري وات) أن "العرب قد أسهموا إلى حد كبير في النهوض بالحضارة الأوربية وأن هذه الإسهامات الفكرية المتميزة يجب أن تأخذ حقهـــا، كمـــا يجـــب أن تفنـــد جميـــع الانطباعات الخاطئة الموجهة ضد الأمة العربية الإسلامية إذ يقول: "إن مـــن أهـــم واجباتنا معشر الأوربيين الغربيين أن نصحح المفاهيم الخاطئة وأن نعترف اعترافا كاملا بالدَّين الذي ندين به للعالم العربي والإسلامي". (٣) وقال المفكـــر النمســـاوي

(١) علماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام صـــ ١٥١.

(٢) حضارة العرب صـــ ٣٠.

(٣) فضل الإسلام على الحضارة الغربية – مونتجمري وات صـــ ١١٤.

(ليوبولد فايس، سابقًا) محمد أسد، حاليًّا [١]: "لسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يدشن في مدن أوربا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة". [٢] وكذا قوله: "نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، وحسب المسلمين أنهم كانوا مثالا للكمال البشري بينما كنا مثالا للهمجية". [٣] ويقول الكاتب الفرنسي (أناتول فرانس) في كتابه (الحياة الجميلة): "... إن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية". [٤] ويقول المستشرق (اربري): "إن اللغة العربية لغة حية، وحضارة العرب هي حضارة مستمرة فهي حضارة الأمس واليوم والغد، وعن طريق العرب عرفت أوربا الحضارة، فقد كانت أوربا تغط في سباتها العميق حين كان العرب يصنعون الحضارات، وكانت جامعاتهم تخرج كثيرا من العلماء في حقل الآداب والعلوم والفنون والطب والهندسة". [٥] كذا نقل المؤرخ (رينهارت دوزي) عن صاحب كتاب (ألوسي موزار أبيس دوطوليد): "أن العربية ظلت أداة الثقافة والفكر في إسبانيا إلى عام ١٥٧٠م. ففي ناحية بلنسية، استعملت بعض القرى الإسبانية العربية لغة لها إلى أوائل القرن التاسع عشر. وقد جمع أحد أساتذة كلية مدريد ١١٥١م

---

(١) محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) ولد في الإمبراطورية النمساوية المجرية عام ١٩٠٠، وتوفي في إسبانيا عام ١٩٩٢م. وهو كاتب وصحفي ومفكر ولغوي وناقد اجتماعي ومصلح ومترجم ودبلوماسي ورحالة مسلم (يهودي سابقًا) درس الفلسفة في جامعة فيينا؛ وقد عمل مراسلًا صحفيًا وبعد منحه الجنسية الباكستانية تولى عدة مناصب منها منصب مبعوث باكستان إلى الأمم المتحدة في نيويورك. وطاف العالم، ثم استقر في إسبانيا وتوفي فيها ودفن في غرناطة. ويعتبر محمد أسد أحد أكثر مسلمي أوروبا في القرن العشرين تأثيرًا..

(٢) علماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام صـ ١٥٠.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق نفسه.

(٥) ينظر: الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي صـ ٣٠٢ –.

عقودًا في موضوع البيوع محررة بالعربية بصفتها نموذجًا للعقود التي كان الإسبان يستعملونها في الأندلس. [١] وأكد (دوزي) على أن أهل الذوق من الإسبان بهرتهم نصاعة الأدب العربي واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين. [٢] وكذا ينظر البروفسور الإسباني (خوان فيرنيث) إلى الترجمات التي تمت من العربية إلى اللغة اللاتينية على أنها "مبعث الانطلاقة العلمية الهائلة لعصر النهضة، وأن إحصاء بسيطًا للنصوص العلمية التي نشرت آنذاك، ويقيم الدليل على الفضل الكبير الذي يدين به الغرب للأندلس". [٣] أما المستشرق الفرنسي (ليفي بروفنسال ١٨٩٤ – ١٩٥٦) فقد بين أن الحضارة العربية كانت واسطة العقد بين تراث أوربا المسيحية وحاضرها، فالعرب في نظره استطاعوا بالإضافة إلى منح علومهم ومعارفهم أن يحافظوا على تراث الإغريق والرومان فالعلم عند العرب في نظره "كان نهر الحضارة الذي ينهمر في قرطبة يحفظ جوهر الفكر القديم وينقله إلى العالم الجديد". [٤]

فبهذه الاعترافات المهمة يتضح لنا مدى الإسهامات التي قدمتها الحضارة الإسلامية؛ للغرب المسيحي وذلك عن طريق حركة الترجمة عن اللغة العربية التي ساعدت على قيام نهضة أوربية شاملة، أو عن طريق الاتصال والاحتكاك المباشر بهم في بلاد الأندلس وفي صقلية ومالطة، أو عن طريق الاستشراق والحملات التنصيرية التي دفعتهم إلى ضرورة إتقان العربية، أو عن طريق الغزو الاستعماري والحروب الصليبية ونحو ذلك مما سبق بيانه.

---

(١) ينظر: العربية لغة العلم والحضارة – مقال في النت للأستاذ / عبد العزيز بن عبد الله بتاريخ ١١/ ١١/ ٢٠١٦.

(٢) ينظر: السابق نفسه

(٣) فضل الأندلس على ثقافة الغرب – خوان فيرنيث – ترجمة/ نهاد رضا صـ ٣.

(٤) حضارة العرب في الأندلس – ليفي بوفنسال صـ ١١١.

ب) – شهادة المنصفين من علماء الغرب على أهمية اللغة العربية، وعلى تأثير الدراسات اللغوية العربية في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة:

تحدث كثير من اللغويين الغربين عن فضل اللغة العربية وبينوا قيمتها وقيمة دراساتها اللغوية التي توصل إليها العلماء العربي القدامى، يقول الفرنسي (هنري لوسيل): "إن الدارس للغة العربية يجد تركيبات مختلفة كل الاختلاف عما يجده في الفرنسية أو في اللاتينية أو في اللغات الأوربية فهو يتعلم الكتابة من اليمين إلى الشمال، ثم هو يكتشف نظامًا لغويًّا أصيلًا داخل الكلمة لا يعتمد على الإضافات في بداية الكلمة أو نهايتها، واللغة العربية تسمح بنوع من التركيب المجرد والذي نجده في الوقت نفسه رقيقًا جدًا، كما تسمح بتغيير وتبديل الأسلوب، وهذا الأسلوب نجده رقيقًا وبسيطًا في الوقت نفسه. كما أن اللغة العربية تسمح بنظام في تعريف الأفعال ذي بساطة، ولكنه أقرب إلى المنطق، هذه المميزات وغيرها تعطي الطفل أو المدرس المبتدئ فكرة عن نوع من التعبير الإنساني جديد وفني بكل تأكيد، وإن اللغة العربية تسهل بشكل عجيب التكيف الصوتي السريع مع حروفها". (١) ويشير أحد الباحثين إلى أثر اللغة العربية في اللغات المختلفة فيقول: "لو أخرجت من قواميس الإسبانيول والبرتغيز وسكان أمريكا الجنوبية والوسطى جميع المفردات العربية والحلى التي اكتسبتها رطانتهم من العرب لما عرفت تلك الأمم أن تبدي فكرا ساميا". (٢) ومن ذلك ما ذكره (جول فيون) في إحدى قصصه تقديرا للغة العربية فقد كتب أن سياحا في أجواف الأرض تحت قعر البحر العميق، اخترقوا طبقات القوى الأرضية حتى وصلوا إلى وسطها أو ما يقرب من ذلك، ولما أرادوا الرجوع إلى وطنهم في ترك أثر يحفظ ذكرهم إلى أبد الآبدين، وإذا وصلت أجيال علماء المستقبلة إلى محط رحالهم فاتفقوا فيما بينهم أن ينقشوا في الصخر كتابة باللغة العربية. ولما سئل جول فيون عن سبب اختياره اللغة العربية قال: "إنها لغة

(١) مقدمات العلوم والمناهج (محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل) ٤/ ٤٢.

(٢) السابق ٤/ ٤٤.

المستقبل ولا شك في أن يموت غيرها وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه، ومما يضاف إلى ذلك أن انتقال اللغة العربية بمصطلحاتها وتعابيرها ليس وحده ما نقل، بل لقد انتقل إلى الغرب استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع ما لحقها من التعديل. (١) كذا بين المستشرق الألماني (يوهان فك) مقام اللغة العربية في قوله "لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية". (٢) ووصف (فيكتور بيرار) اللغة العربية في ذلك العصر بأنها أغنى وأبسط وأقوى وأرق وأمتن وأكثر اللهجات الإنسانية مرونة وروعة؛ فهي كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير: "وأعجب ما في الأمر – وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الأخرى – أن البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر، وجهابذة النثر العربي جبلة وطبعًا، ومنهم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغوي وعبقريتهم في القريض". (٣) ويقول "أرنست رينان" في كتابه (تاريخ اللغات السامية): "إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة ثم بدأت فجأة في غاية الكمال، سلسة أيّ سلاسة، غنية أيّ غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أيّ تعديل مهم، فليس لها طفولة والا شيخوخة، ظهرتّ لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمض على الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى، ومن أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القومية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل، تلك اللغة فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن

(١) مقدمات العلوم والمناهج (محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل) ٤/ ٤٤.

(٢) ينظر: الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي صـ ٣٠٢.

(٣) قال غير العرب عن العربية ــ مقال في النت .

نظامها...". [١] وقد دعا "إسرائيل ولفنسون" في كتابه (تاريخ اللغات السامية) المشارقة المتكلمين بلغة الضاد إلى درس فقه اللغات السامية للاقتناع بعظمة أجدادهم وبالدور الذي قاموا به في حضارة العالم القديم. ثم أكد أن المستشرقين الذين نددوا بالعروبة وبالإشعاع العربي لم يهدفوا إلا لغايات دينية واستعمارية. [٢] كذا أشاد "ماريو بِلْ" مؤلف كتاب (قصة اللغات The Story of Language) بأن "العربية هي اللغة العالمية في حضارات العصور الوسطى، وكانت رافدًا عظيمًا للإنكليزية في نهضتها وكثيرٍ من الأوربيّات، وقد أورد قاموس (Littre) قوائمَ بما اقتبسته هذه اللغات من مفرداتٍ عربيةٍ، وكانت أولها الإسبانية ثم الفرنسية والإيطالية واليونانية والمجرية وكذلك الأرمنية والروسية وغيرها، ومجموعها ٢٧ لغة، وتقدر المفردات بالآلاف". [٣] وقد عبر الأستاذ (لويس ماسينيون Louis Massignon) وهو من أكبر المستشرقين الفرنسيين وأشهرهم عن دور العربية في نقل المنهاج العلمي إلى الحضارة الأوربية بقوله: "استطاعت اللغة العربية أن تبرز طاقة الساميين في معالجة التعبير عن أدق خلجات الفكر سواء كان ذلك في الاكتشافات العلمية والحسابية أو وصف المشاهدات أو خيالات النفس وأسرارها. واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفردت بتفردها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي. إن التعبير العلمي الذي كان مستعملا في القرون الوسطى لم يتناوله القدم، ولكنه وقف أمام تقدم القوى المادية فلم يتطور. أما الألفاظ المعبرة عن المعاني الجلية والنفسانية والصوفية فإنها لم تحتفظ بقيمتها فحسب، بل تستطيع أن تؤثر في الفكر الغربي وتنشطه". [٤]

---

(١) ينظر: الفصحى لغة القرآن صـ ٣٠٧.

(٢) ينظر: العربية لغة العلم والحضارة – مقال في النت للأستاذ / عبد العزيز بن عبد الله بتاريخ ١١/ ١١/ ٢٠١٦.

(٣) فن الترجمة وعلوم العربية – إبراهيم بدوي الجيلاني صـ ١٧٨.

(٤) ينظر: الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي صـ ٣٠١ –.

أما عن تأثير الدراسات اللغوية العربية في الدراسات اللغوية الغربية فقد أكده المنصفون من علماء الغرب حديثًا، وكثير من العلماء العرب المحدثين خاصة الذين لم يتأثروا بغلاة المستشرقين. فإن القراءة المعمقة الواعية للموروث اللغوي العربي تبين بشكل واضح مدى صلته القوية باللسانياتّ الحديثة، فليس كل ما أقره هذا العلم جديد كل الجدة، وفي تراثنا العربي إشارات واضحة إلى كثير من القضايا اللغوية في التفكير اللساني الحديث، ولعل أهم الدراسات المبكرة التي أولت عناية للغة العربية تلك التي تبناها الغربيون في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولقد أثبت باحثون لسانيون غربيون، معتدلون ومنصفون (أمثال: أنتوني روبنز (Anthony Robbins): وهو كاتب ومتحدث أمريكي، والفيلسوف واللساني الأمريكي المشهور أفرام نعوم تُشُومِسْكِي (Avram Noam Chomsky) ، والعالم اللساني الأمريكي المشهور ولتر كوك (Walter Cook)) تأثر اللسانيات الحديثة بالتراث اللغوي العربي، وذلك عن طريق وسائل مُختلفة، سواءً أكانت مباشرة (الاطلاع على التراث اللغوي العربي باللغة العربية) أم غير مباشرة (عن طريق ترجمة أعمال النحاة واللغويين والبلاغيين العرب إلى لغات أجنبية كثيرة؛ وخاصة اللغة الألمانية). [١]

ومن أوائل الذين أثبتوا تأثر الفكر اللساني الغربي الحديث بالفكر اللساني العربي القديم جوزيف شاخت حيث قال: "أما علم المعاجم العربية فكان هو الأساس الذي قامت عليه المعاجم الغربية العربية. ولم تحاول الأعمال المعجمية الكبيرة الرجوع إلى الأصول نفسها إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وذلك بظهور قاموس راينهارت دوزي R. Dozy) المسمى (إضافة إلى المعاجم العربية) عام ١٨٨١م، ومعظم معلوماتنا المتعلقة بالمفردات اللغوية تعتمد إلى يومنا هذا على أعمال أصحاب المعاجم من أهل العصور الوسطى". [٢] ومنهم

(١) صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، د/مازن الوعر مجلة التراث العربي.

(٢) تراث الإسلام ٢/ ٢٤ – سلسلة عالم المعرفة (٢٣٤) يونيو ١٩٩٨م.

أيضا (ديفد بترسون) وذلك في مقال كتبه بعنوان (بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب)، وناقش فيه لجوء النحويين العرب إلى التأويل والتجريد، وختمه بقوله: "يجب أن يكون واضحًا من النِّقاش الذي تقدَّم أنَّ النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظَّاهر في أية حال. بل هم بنيويون بالمعنى نفسه الذي يصنَّف به أكثر الدرس اللساني في القرن العشرين، ومن ضِمنه النحو التوليدي التحويلي بأنَّه بنيوي ــ لقد كان النحويون العرب مُهتمِّين بالتَّحليل البنيوي الذي يصل الأشكال بعضها ببعض، وذلك ما يؤدي إلى تفسيرها. ومن اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مُجرَّدة ومصوغة بمصطلحات تُشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم ... إن دليل نجاحهم يبينه أن عملهم لم يتجاوز إلا في حالات قليلة". (١) فبعد أفول العلم اليوناني وهيمنة الإمبراطورية الرومانية على المشهد العالمي دخل العالم عصر الظلمات، وتوقفت حركة العلم لمدة قرون طويلة، ولم تستطع أية ثقافة غير الثقافة العربية أن تحمل مشعل العلم وتتقدم به خطوات كبيرة، وهذا ما أكدته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة في قولها: "أما الشعب الذي خلف الثقافة القديمة وحمل لواء النهضة العلمية الفكرية في العالم فهو شعب صحراوي خرج من الصحراء وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية في العلم وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لا تقل عن ثمانية قرون، كما أن هذه الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية، كما كان العرب أقوى وأخصب من اليونانيين". (٢) وكذا تحدث المستشرق الألماني (جوزيف شاخت ١٩٠٢/ ١٩٦٩) عن دور العربية في نشر العلم في أوربا وأنها كانت لغة العلوم التي فرضت نفسها على الأوربيين في العصور الوسطى حيث ذكر في كتابه الموسوم بـ (تراث الإسلام): أن الإسلام كان قبل كل شيء بنية سياسية إيديولوجية عدائية، وإقليم اقتصادي غريب، لكنه أيضا حضارة مختلفة، وهي حضارة راقية

(١) مكانة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة – د/ حمزة بن قبلان المزيني صـ ٣٣ـ

(٢) شمس الله تشرق على الغرب – زيغريد هونكه – ترجمة د/ فؤاد حسنين علي صـ ٢٥٩.

امتلكت إمكانات فرض نفسها على الأوربيين، فخلال عدة قرون نجد ابن سينا وابن رشد والغزالي في الفلسفة، وابن سينا وهالي (علي بن العباس) والرازي في الطب ومؤلفين آخرين في العالم الآخر، نجد هؤلاء يقلدون وتعاد طباعة أعمالهم ويعلق عليها وتدرس .... وهكذا كان العرب يتمتعون بمنزلة عظيمة في القرون الوسطى، فمن الناحية الثقافية فرض تفوق الحكام الأجانب – (يقصد العرب) – نفسه بسرعة وانحنت اللاتينية الهزيلة في شبه الجزيرة – (يقصد إسبانيا) – إعجابًا بعلمهم وأدبهم وشعرهم ... لقد ترك الوجود العربي في شبه الجزيرة طابعه على اللغة بعمق وخصوصا من حيث المفردات، وهذا الأثر يتناول مختلف نواحي الحياة من الزراعة إلى الفنون والحرف، ومن التجارة إلى الإدارة، ومن الحرب إلى العلم... وفي مجال الأوزان والمقاييس والعملات. (١) وفي مقال للباحثة (جوليا كرستيفيا Julia Kristeva) وهي فيلسوفة بلغارية فرنسية وناقدة أدبية تعيش في فرنسا منذ منتصف ستينيات القرن العشرين. وهي الآن أستاذة فخرية في جامعة باريس ديديرو، وقد اهتمَّت فيه بإبراز دور النُّحاة واللُّغويين العرب القُدامى في إثراء الحركة اللُّغويَّة، وإسهامهم في بحوثها، خاصةً منها ما تعلَّق بالنَّحو العربي، فإنَّ النَّاظر في المُصنَّفات والكُتب اللُّغويَّة المُتداولة بين المُشتغلين بالدَّرس اللِّساني الحديث لا يملك إلا أن يُسجِّل بكثيرٍ من الحَسْرَةِ والاستياء؛ إغفالَ أصحاب هذه المُصنَّفات، الحركة اللغوية التي قام بها اللُّغويون والنُّحاة العرب القُدامى، ولعلَّ هذه الباحثة – وهي مَنْ هي في صُلب الدِّراسات اللِّسانيَّة والسِّيميائيَّة الحديثة – أحدُ الاستثناءات القليلة في كتابها (Le Langage, cet inconnu Points–Seint, 1981)، حيث كتبت فقرةً لا يُستهان بها؛ حول إسهام العرب القُدامى في مجال الدِّراسات اللُّغوية، تُبيِّنُ فيها قيمة هذه المُساهمة؛ عنوانها: (La grammaire arabe النحو العربي حيث تقول: "يتبوأ النَّحو العربي مكانةً هامَّةً في صُلبِ

(١) ينظر: تراث الإسلام – جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث ١/ ٤٦ بتصرف وصـ ١/ ١٠٨، ١٠٩، وصـ ١/ ١١٤، ١١٥.

مُكتسبات التَّفكير حول اللغة في العصور الوسطى... يقول المثل العربي السَّائر: إنَّ حكمة الرُّومان في ذهنهم، وحكمة الهنود في نزواتهم، وحكمة اليونان في رُوحهم، أمَّا حكمة العرب ففي لسانهم....، وتتميز النَّظريَّة اللِّسانيَّة العربيَّة بفكرها الثَّاقب؛ حول أصوات اللغة، لقد درج هذا الفكر على تقسيم الأصوات إلى شديدةٍ ورخوةٍ من جهة، وإلى صفيرية وقلقلة من جهة أخرى...، لما كان العرب علماء تشريح كبارًا، مثل سيبويه، فقد كان لهم فضلُ السَّبق في وضع الأوصاف الدقيقة لجهاز النُّطق، التي أضافوا لها الأوصاف الفيزيائية لحركة الهواء. وقد كان تحليلهم للنِّظام اللُّغوي من الدِّقّة ما مَكَّنهم بعد – وربَّما كانوا الرُّوَّاد – من التَّمييز بين العنصر الصَّوتي (الحرف)، والعنصر الكتابي (العلامة) للغة. كما أمكنهم تمييزهم للصَّوامت والصَّوائت من الاهتداء إلى حصر مفهومي المصوت والمقطع. هذا وقد عُدَّت الصَّوامت جوهر اللغة، في حين عُدَّت الصَّوائت عوارض...(accidents) ، هذا وقد كان لسيبويه تلميذ الخليل الفضل في بلوغ النحو العربي قمته، ويُعدُّ مُصنَّفُه "الكتاب "أول تأليف (Systématisation) وتركيب له. [١] ويقول "مايكل بريم": "أعتقد أن النحو العربي قد وصل إلى أدنى انحطاطه على أيدي الباحثين الغربيين، فقد تجاهل الغرب المعاصر الفكر العربي الخارق الذي تمتع به النحاة العرب في تحليلاتهم لبنية اللغة العربية. وأحب أن أقول: إن عقلي هذا إنما استمد إلهامه من الروح العلمية لذلك الفكر العربي الخارق الذي أراد تحديد الأصل أو التمثيل العميق للغة العربية". [٢] وكذا اعتراف "تشومسكي" نفسه بتأثره بالنحو العربي حيث قال: "إن دراستي المبكرة كانت متعقلة بدراسة النحو العبري في العصور الوسطى، فقد كان والدي متخصصًا في النحو العبري والعربي في القرون الوسطى، وقد درست

(١) ينظر: من إسهامات العرب القدامى في مجال الدراسات اللسانية – مقال للدكتور/ عبد الله أحمد جاد الكريم حسن – نشر على موقع شبكة الوكة في تاريخ الإضافة 6/12/2015 ميلادي – ١٤٣٧/٢/٢٣ هجري.

(٢) دراسات نحوية ودلالية وفلسفية في ضوء اللسانيات المعاصرة – د/ مازن الوعر ص ١١٥.

هذا النحو على يديه وباعتباري طالبًا في الجامعة فقد درست النحو العربي الحديث كما درست النحو العربي في القرون الوسطى كذلك.... فقد كتبت حول هذه القضية في مقدمة كتابي "البنية المنطقية للنظرية اللغوية وناقشت في هذه المقدمة كيف أن بعضًا من دراستي المبكرة في صغري لنحو القرون الوسطى كان قد قادني إلى بعض الأفكار حول البنية التنظيمية اللغوية التي دخلت بعد ذلك في نظرية الصوتيات التوليدية، ونظرية النحو التوليدي فكانت هذه الأفكار في الواقع هي المثل المعتبرة التي احتذيتها في الأربعينيات، وأول بحث كتبته في النحو التوليدي هو ما كتبته عن هذا النحو واعتمدت فيه على هذه الأفكار". (١) يقول مازن الوعر: "إنَّه لا غرابة أن نرى عالمًا لسانيًّا أمريكيًّا مُعاصرًا هو نعوم تشومسكي يقف وقفةَ دهشةٍ وعجبٍ من التُّراث العربي اللُّغوي (النحوي والدلالي)، عندما قرأ وعلَّق على عملٍ لسانيٍّ كنتُ قد تقدَّمت به كرسالةٍ للدكتوراه، ففي رسالة بعثها إليّ في ٢٦ نيسان ١٩٨٢م قال فيها: "إنَّه من الواضح أنَّ هذه الدراسة هي دراسة جديَّة ورائعة ومهمة... ولقد دُهشت بشكل خاص من تلك التَّعليقات اللُّغوية التي وردت في ثنايا هذه الدراسة؛ والتي كان قد قالها العرب القُدامى. إنَّ هذا وحده يجعل هذه الدراسة إسهامًا قيِّمًا جدًا لتطوير الدراسات اللسانية الغربية..."(٢). كذا صرَّح تشومسكي نفسه كما ذكرنا سابقا بأنَّه درس العربية في المستوى الأول في جامعة بنسلفانيا على أيدي مستشرقيْن معروفين هما (جورجيو دي لافيدا) (وفرانز روزنتال)، ونوّه تشومسكي في معرض ردّه على استفسارٍ وُجّه إليه في سنة ١٩٨٩م بأنَّ تأثيراتِ النحو العربي كبيرةٌ على نظريته، وأنَّه قرأ كتاب سيبويه كمرجعٍ له. (٣) وكذا قوله:

---

(١) حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية والتحويلية، لقاء أجراه د/ مازن الوعر مع تشومسكي، مجلة اللسانيات، العدد السادس، جامعة الجزائر، ١٩٨٢ م، ص ٧٩ – ٨٠.

(٢) قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث صـ ٣٥٩-٣٦١.

(٣) ينظر: فن الترجمة وعلوم العربية – إبراهيم بدوي الجيلاني صـ ١٦٦، وظواهر النقد الحديث وجذورها في التراث، لحسن الهويبل، وتشومسكي في عيد ميلاده السبعين، لحمزة بن قبلان المزيني.

"لقد كنت مهتمًا بالتراث النحوي العربي والعبري الذي نشأ في بعض ما كنت قد قرأته من تلك الفترة، ولكنني لا أشعر أنني كفؤ للحديث عن البحوث اللسانية التي كان العرب قد أسهموا بها لبناء علم اللسان الحديث". (١) ومن المُبرَّزين في الإسهام بدراسة النحو العربي كذلك (جوناثان أوين Jonathan Owen) في كتابه "مقدمة للنظرية العربية النحوية في القرون الوسطى"ويَعرض في المقدمة إلى المعالم البارزة في تاريخ النحو العربي بدءًا من سيبويه؛ ويشير إلى مصادر هذا النحو التي تتكون من كتب النحو الوصفية مثل: كتاب سيبويه. ويقول: "إنَّه على العكس من النظرية اللسانية المعاصرة التي تكون فيها مبادئ الوصف والتفسير مُعلَنةً واضحة لم تكن هذه المبادئ في النحو العربي تذكر علنًا في كُلِّ حال. لكنَّ هذا لا يمنع الباحث المُدقِّق من العثور عليها؛ لأنَّها وإنْ لم تكن مُعلنة فإنَّها مُنفَّذة فعلًا، وهي ليست أقلَّ من حيث الدقة، وأشار فيه كذلك إلى أنَّه يُمكن البرهنة على أنَّ أحد الأسباب التي أدَّت إلى عدم تقدير النظرية العربية حين اكتشفها الغربيون في القرن التاسع عشر إبّان تكوُّن التقاليد الاستشراقية، أنَّه لم يكن في الحضارة الأوروبية في تلك الفترة ما يُماثلها. ولم تُوضع هذه النَّظرية في منظورٍ أفضل إلا مع التقاليد البنيوية التي أتى بها دي سوسير، وبلومفيلد، وتشومسكي". (٢) وكذا يقول الباحث الاسترالي المعاصر (مايكل كارتر) عن كتاب سيبويه: "إنَّ كتاب سيبويه يُقدِّم نموذجًا من التَّحليل البنيوي لم يعرفه الغرب حتى في القرن العشرين، ويُقَدِّر أن لو وُلِدَ سيبويه في عصرنا هذا لتبوَّأ منزلةً وسطًا بين دي سوسير وبلومفيلد". (٣) وقد سبق أن بينا ذلك. صحيح أن سيبويه لم يُنظم تفكيره في نظريات، وكان تفكيره عبارة عن آراء متفرقة قد لا يجمعها جامع في أحيان كثيرة.. وصحيحٌ أنَّ الغربيين المُحدثين تفوَّقوا في تنظيم الفكر اللغوي في نظريات معينة. ولكن ذلك لم يمنع

(١) ينظر: مدخل إلى علم اللسان الحديث – د/ عبد الرحمن الحاج صالح صـ ٧٢.

(٢) ينظر: مكانة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة صـ ٤١، ٤٢.

(٣) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث – د/ نهاد الموسى صـ٤٠.

التشابه والتأثر، بل الاتفاق بين آراء سيبويه والدرس اللساني الحديث، ومثَّلنا له بالمدرسة التوليدية التحويلية. "فالصورة التي يمثلها كتاب سيبويه هي الدليل الأوضح على أن النحو العربي في بداياته لم يكن معياريًا خالصًا، بل كان ألصق ما يكون بالتنظير اللساني الحديث... وقد اكتشف المتخصصون في اللسانيات الحديثة، ولا سيما في إطار اللسانيات التوليدية، هذا الغنى النظري في النحو العربي المبكر، وهو ما دعا هؤلاء إلى القول بأن النحو العربي في صورته تلك يتشابه مع الدراسات اللسانية الحديثة، إن لم يتماثل معها في الأهداف وفي طريقة البحث والوصف والتفسير". (١) ولعل أفضل كتاب يُمثِّل وُجهات النَّظر التي تتلمس مظاهر الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التوليدية هو كتاب د/ نهاد الموسى: (نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث)، وقد صرَّح في مقدمة هذا الكتاب بأن "كثيرًا من الأنظار التي وجدها في كتب المُحدثين من الغربيين، ولابَسَها في مُحاضراتهم ومُقابساتهم، يُوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عند النحويين العرب مُصرِّحين به حينا، وصادرين عنه كثيرًا من الأحيان. ويرى الموسى أن النحو العربي بدا كأنه يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة لا المدرسة التوليدية وحسب. (٢) كذا كتب الأستاذ (هاملتون جب Hamilton Gibb) في مجموعة تراث الإسلام فصلًا ممتعًا عن أثر العرب في الآداب الأوروبية من محاضراته على الشعر قال فيه: "إن أوروبا مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية فيها، كما هي مدينة بعقيدتها لبلاد اليهودية. وإننا — يعني الأوروبيين — مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى الحيوية الدافعة، أو بجميع تلك القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه رومة". (٣)

---

(١) مراجعات لسانية – د/حمزة بن قبلان المزيني – كتاب الرياض، ع/ ٧٥، فبراير ٢٠٠٠م ٢/ ٢٠٧

(٢) ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث صـ ٩ وما بعدها.

(٣) أثر العرب في الحضارة الاوربية للعقاد ص ٥٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته وبفضله يتم إنجاز المهمات، والانتهاء من الأعمال على النحو الذي نتمنى من خلاله تبيان الحقائق والمشكلات، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد وعلى آله والصحب الكرام. وبعد:

فقد تم الانتهاء من هذا البحث وتم التوصل من خلاله إلى عدد من النتائج من أهمها:

١. تأخر الدراسات اللغوية عند العرب من حيث الزمن عن الدراسات اللغوية للأمم الشرقية الأخرى قبل الإسلام، حيث لم يؤثر عن العرب أي نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام، وإنما كان ذلك في العصر العباسي الأول أي القرن الثاني الهجري.، ولهذا فهم متأخرون زمنيًّا عن كثير من الأمم، مثل الهنود واليونان والرومان اللذين عرفت عنهم دراسات لغوية راسخة ذات قيمة وانتشار قبل الإسلام.

٢. أصالة الدراسات اللغوية العربية في العصور الإسلامية الأولى؛ نظرا لارتباطها بالقرآن الكريم الذي نشأت في كنفه خادمة له، حيث كان الحفاظ على لغته من اللحن الذي انتشر دافعا إلى وجودها حتى لا يلحن أحد في قراءة القرآن الكريم. فخلّفوا لنا تراثا لغويا على درجة عالية من الدقة العلمية والمنهجية يضاهي من حيث قيمته ومكانته الإنتاج اللساني الغربي في العصر الحديث، بل ويتفوق عليه في بعض الأحيان، فاللغويين العرب القدامى طوروا نظرتهم الخاصة في نظامهم اللغوي، ولم يطبقوا النظام اللغوي اليوناني على لغتهم أبدا كما هو الحال في النحو اللاتيني.

٣. أن للحضارة العربية دورًا – لا ينكره المنصفون عند الغرب – في نقل الحضارة العربية الإسلامية وعلومها المختلفة ومنها الدراسات اللغوية إبان العصور الوسطى، فتعلموا اللغة العربية وتأثروا بها؛ مما جعل لهذه الحضارة العربية القديمة في جميع جوانبها العلمية والفكرية أثر بارز في التاريخ الأوروبي الحديث، وظلت

العربية لغة العلم والحضارة العالمية حتى القرن الثالث عشر الميلادي أي بعد انهيار العرب.

٤. أن التأثير والتأثر بين الحضارات أمر لا ينكره أحد لا سيما في العصر الحديث الذي توافرت فيه عوامل الاتصال بينها؛ مما يجعل تفاعلها وتوصلها أمرا لا يمكن دحضه أو إنكاره.

٥. كان لبلاد الأندلس دور مهم في نقل التراث العربي عامة واللغوي خاصة إلى الغرب عن طريق تعلم أبناء الغرب اللغة العربية من ناحية، والترجمة المباشرة أو غير المباشرة للعلوم اللغوية العربية وغيرها إلى اللاتينية من نحو ومعجم ونشر للمخطوطات تارةـ أخرى، كذا كان لبلاد الأندلس دور رئيس في النهضة العلمية الأوربية، فقد كانت أوروبا – عن طريقها – تتلمذ على أيدي العرب، وكانت تتعلم لغتهم، وتترجم علمهم، وتنشئ المدارس على غرار مدارسهم، وتضع لها المناهج الدراسية المنقولة عن المناهج العربية، ومن ثم لم يكن للعلماء الأوربيين في تلك الحقبة إنتاج علمي خاص؛ لاعتمادها كليًا على التراث العربي، وكل ما ظهر من مؤلفات لاتينية لا تعدو أن تكون ترجمات لمؤلفات إسلاميه أو نقلًا عنها. وبذلك كانت بلاد الأندلس جسرًا ثقافيًّا عبرت من خلاله المعارف العربية الإسلامية والتراث الفكري القيم إلى أوربا عن طريق حركة الترجمة التي تعد وسيلة للتواصل الحضاري بين الشعوب والتي كان لها الأثر الكبير في بعث نهضة أوربية شاملة.

٦. أن الحكام النورمانديين الذين خلفوا العرب المسلمين في حكم جزيرة صقلية قد حافظوا على مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وشجعوا رجالها، وكان لهم دور كبير في انتقال التأثيرات العربية الإسلامية عبر صقلية وجنوب إيطاليا إلى بلدان أوربة، فكان للجزيرة في هذا المجال دور يماثل دور الأندلس، فبفضل الحكام النورمانديين لاسيما روجر الأول وابنه روجر الثاني وكذا فريدريك الثاني حفيد روجر الثاني وصلت المعارف الإسلامية إلى أوربا عن طريق نقل التراث القديم وجعله في متناول الأوربيين، فهؤلاء الملوك قد احترموا هذه الحضارة وعرفوا

قيمتها وحافظوا على تراثها وشجعوا علماءها وأدباء المسلمين ما أدى إلى استقرار الحضارة الإسلامية في صقلية بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها حكامها النورمان، فكانت العربية لغة العلم في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ومن ثم فقد أسهمت الجزيرة بحظ وافر في نقل العلوم الشرقية إلى الغرب وكانت مركز ترجمة نشيطة، وكان لها نصيب غير خفي في إيقاظ أوربا في العصر الوسيط من سباتها العميق، وأن تكون برزخًا في نقل جزء كبير من حضارة الشرق إلى الغرب.

٧. أن الترجمة اضطلعت بالدور الأساس في الانتقال المعرفي الإسلامي إلى الآخر. ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا حركة الترجمة لمكثت أوروبا في غياهب الظلمات قرونا أخرى، ومن هنا فإنها مدينة للحضارة الإسلامية فيما شهدتها من التقلبات والتطورات منذ أواخر العصور الوسطى والقرون التالية، وهذا بإقرار المنصفين من المستشرقين والعلماء الاختصاصيين في المجالات العلمية المختلفة؛ ذلك لأن المعارف الجديدة التي نقلت من العربية إلى اللاتينية أضاءت أمام الأوربيين طريق الحياة، وبددت ضباب الجهالة الذي حجب عنهم رؤية الحضارة وأيقظتهم من سباتهم العميق ونبهتهم من غفلتهم الطويلة فأقبلوا على دراسة الحضارة الإسلامية بشغف بالغ ونهم شديد. فالعقل التاريخي العربي تملكه الغرب عن طريق الترجمة اللاتينية وتم تمثله من خلال الصراع معه لمدة تزيد على خمسة قرون، وهو العقل المكتوب الذي اعتمدت عليه الجامعات الأوربية بعد ترجمته إلى اللاتينية.

٨. كان للحروب الصليبية دور مهم وبارز في التعرف على الدراسات اللغوية العربية، حيث تعرفت دول غرب أوروبا على الحضارة الإسلامية بشكل أعمق وأعرض، وتركت في حضارة أوروبا في عصر النهضة سمات ودلائل تشير إلى التأثر بالحضارة الإسلامية والنقل عنها حيث ظلت مؤلفات العلماء المسلمين هي المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا حتى القرن التاسع عشر، فلم تكن الحروب الصليبية التي كان يتمخض عنها العالم سوى نزاع عظيم بين أقوام من الهمج

وحضارة تعد من أرقي الحضارات التي عرفها التاريخ. ومن هنا يتبين لنا أن للحروب الصليبية دورًا مهمًّا في نقل الدراسات اللغوية العربية القديمة إلى الغرب حيث كانت جسرًا حضاريًا انتقلت عن طريقه الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا.

٩. أنه رغم محاولات طمس دور الحضارة العربية الإسلامية من قبَل بعض العلماء الأوروبيين الذين قالوا هذه بضاعتنا ردت إلينا فما هي إلا علوم أجدادنا اليونانيين وقد أخذها عنهم العرب ونسبوها إلى أنفسهم. نجد المنصفين من علماء الغرب يدركون فضل الحضارة العربية الإسلامية على بلادهم عن طريق ما ترجموه وطوروه من علوم الأمم الأخرى أو عن طريق ما ترجم من علومهم ومعارفهم التي شهروا بها في المجالات العلمية كافة إلى الغرب. فقدأثبت باحثون غربيون كثيرون معتدلون ومنصفون تأثر اللسانيات الحديثة بالتراث اللغوي العربي، وذلك عن طريق وسائل مُختلفة، سواءً أكانت مباشرة (الاطلاع على التراث اللغوي العربي باللغة العربية) أم غير مباشرة (عن طريق ترجمة أعمال النحاة واللغويين والبلاغيين العرب إلى لغات أجنبية كثيرة؛ وخاصة اللغة الألمانية).

فهرس المصادر والمراجع

- أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية – جاد أحمد رمضان – مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة١٩٨١م.
- أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية – عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي – الرياض – الطبعة/ الأولى ١٤١٥ه/ ١٩٩٤م.
- أثر العرب في الحضارة الأوربية – عباس محمود العقاد – دار نهضة مصر للطباعة والنشر (مكتبة الأسرة) القاهرة – من دون تاريخ.
- أثر سيبويه في نشأة النحو العبري – د/ حسن ظاظا – مجلة اللسان العربي، المجلد (الثاني عشر)
- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – د/ أحمد هيكل – دار المعارف ١٩٨٥م.
- الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي (نقد العقل التاريخي) – د/ محمد ياسين عريبي – المجلس القومي للثقافة العربية/ الرباط، المغرب – الطبعة/ الأولى ١٩٩١م.
- الإسلام والحضارة العربية – محمد كرد علي – مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م.
- أضواء جديدة على الحروب الصليبية – سعيد عبد الفتاح عاشور – الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م.
- اعرف وطنك أيها العربي قُرْطُبَة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى – حسين مؤنس – مجلة العربي، العدد (٩٥) أكتوبر ١٩٦٦م.
- **أعمال حيوج النحوية دراسة تأصيلية مقارنة في ضوء النحو العربي** – رسالة دكتوراه ٢٠٠٩م – كلية الآداب اللغات الشرقية، جامعة الإسكندرية للباحثة / وفاء محمود عبد الجليل محمود الشناوي (الملخص).
- بلاغة العرب في الأندلس – أ/ أحمد ضيف – مطبعة مصر – الطبعة/ الأولى ١٣٤٢ه/ ١٩٢٤م.
- التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى – ديونيسيوس آجيوس، ريتشارد هيتشكوك – ترجمة/ قاسم عبده قاسم – دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية/ مصر ٢٠٠٠م.
- تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات – ليلى صديق – مجلة حوليات التراث/ جامعة مستغانم، الجزائر – العدد (٥) سنة ٢٠٠٦م.

- تأثير النحو العربي في علم النحو العبري – كفاح صابر رشيد – مجلة جامعة تكريت للعلوم المجلد (١٩) العدد (٢) شباط ٢٠١٢م.
- التأثيرات الاستشراقية في مسيرة اللغة العربية الفصحى بين الإنصاف والإجحاف – أ/ محمد عيساوي – مجلة تاريخ العلوم – العدد السابع – مارس ٢٠١٧م.
- تاريخ إسبانيا الإسلامية – ليوبولدو تورتيس بلباس – المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة٢٠٠٢، رقم ٤١٢.
- تاريخ الفكر الأندلسي– آنجل جنثالث بالنثيا – ترجمه من الإسبانية/ حسين مؤنس – مكتبة الثقافة الدينية/ القاهرة، مصر ١٩٥٥م.
- تاريخ صقلية الإسلامية – د/ عزيز أحمد – ترجمة/ أمين توفيق الطيبي صـــ ٤٩ الدار العربية للكتاب، ١٣٨٩ه /١٩٨٠م.
- تراث الإسلام – جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث – ترجمة د/ محمد رهير السمهوري، ود/ حسين مؤنس، ود/ إحسان صدقي العمد – تعليق وتحقيق د/ شاكر مصطفى – ومراجعة د/ فؤاد زكريا – سلسلة عالم المعرفة/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ الكويت يناير ١٩٧٨م، ويونيو ١٩٩٨م.
- الترجمة رافدًا للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس – د/علي سليمان محمد – مجلة بحوث كلية الآداب/ جامعة المنوفية.
- الترجمة في الأندلس ودورها في النهضة الأوربية الحديثة – د/ مصطفى داودي، عرض وتقديم د/ رشأ الخطيب – مجلة المنتدى العدد (٢٥٩) المجلد (٢٩) يناير – إبريل ٢٠١٤ صـــ ١١٨– منتدى الفكر العربي/ عمان، الأردن.
- الترجمة في العصور الوسطى – د/ محمد عباسة، جامعة مستغانم، الجزائر – مجلة حوليات التراث، العدد (٥) ٢٠٠٦
- التفكير اللساني في الحضارة العربية – د/ عبد السلام المسدي – الدار العربية للكتاب/ تونس – الطبعة/ الثانية ١٩٨٦م.
- حركة الترجمة في الاندلس ودورها في التقدم العلمي الأوربي ٦ – ٨ه / ١٢ – ١٤م – د/ حكيم أحمد مام بكر – مجلة جامعة كركوك/ للدراسات الإنسانية المجلد (١٣) العدد (١) لسنة ٢٠١٨م.
- الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف – البير حبيب مطلق – الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٦٥م.

- حضارة العرب – غوستاف لوبون – ترجمة/ عادل زعيتر – مؤسسة هنداوي ٢٠١٣م.
- حضارة العرب في الأندلس – ليفي بوفنسال – تر/ ذوقان فرقوط – دار مكتبة الحياة/ بيروت – د، ت
- حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوروبية – مقال بقلم د/ عبد الجليل شلبي – موقع قصة الإسلام ٥/ ٦/ ٢٠١١ – ومجلة الفسطاط التاريخية، نقلًا عن مجلة الأمة، العدد ٢٧، ربيع الأول ١٤٠٣هـ.
- حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية والتحويلية، لقاء أجراه د/ مازن الوعر مع تشومسكي، مجلة اللسانيات، العدد السادس، جامعة الجزائر، ١٩٨٢م.
- الحياة العلمية في صقلية الإسلامية ٢١٢ – ٤٨٤ه/ ٨٢٦– ١٠٩١م – رسالة دكتورة بجامعة أم القرى في الحضارة والنظم الإسلامية للباحث علي بن محمد بن سعيد الزهراني رجب ١٤١٤/ ١٩٩٣م.
- دراسات لغوية القياس في الفصحى والدخيل في العامية – د/عبد الصبور شاهين – مؤسسة الرسالة/ بيروت – الطبعة/ الثانية ١٩٨٦م.
- دراسات نحوية ودلالية وفلسفية في ضوء اللسانيات المعاصرة – د/ مازن الوعر– دار المتنبي للطباعة والنشر/القاهرة ٢٠٠١م.
- دور الثقافة العربية في البحر الأبيض المتوسط صقلية والأندلس خلال العصور الذهبية للإسلام في الغرب – د/ جمال عبد الكريم – مجلة المؤرخ المصري/ جامعة القاهرة كلية الآداب قسم التاريخ العدد ١٩ سنة ١٩٩٨م.
- دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية – أ/ هاني المبارك، ود/ شوقي أبو خليل – دار الفكر/ دمشق، سورية، ودار الفكر المعاصر/ بيروت، لبنان – الطبعة/ الأولى ١٤١٧ه/ ١٩٩٦م.
- رحلة ابن جبير – أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي – دار بيروت للطباعة والنشر/ بيروت – الطبعة/ الأولى – من دون تاريخ.
- الزلاقة معركة من معارك الإسلام الحاسمة في الأندلس – جميل عبد الله محمد المصري – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – الطبعة/ السنة الثامنة عشرة – العددان التاسع والستون والسبعون – محرم – جمادى الآخرة.
- شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوروبة) – زيغريد هونكه – ترجمه/ فاروق بيضون، وكمال دسوقي – راجعه ووضع حواشيه/ مارون عيسى

الخوري – دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة/ بيروت – الطبعة/ الثامنة ١٤١٣ه/ ١٩٩٣م. ونسخة أخرى منه بعنوان (شمس الله تشرق على الغرب – زيغريد هونكه – ترجمة د/ فؤاد حسنين علي – دار العالم العربي/ القاهرة – الطبعة/ الثانية ١٤٣٢ه/ ٢٠١١م).

- شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية – عماد عجوة – مجلة حراء (مجلة علمية ثقافية فصلية)، العدد (٩)، (أكتوبر– ديسمبر) السنة الثالثة ٢٠٠٧م.
- صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات – د/ مازن الوعر – مجلة التراث العربي/ اتحاد الكتاب العرب، سوريا – مجلد (١٢) العدد (٤٨) – سنة ١٩٩٢م.
- ظواهر النقد الحديث وجذورها في التراث – مقال في النت لـــ د/ حسن بن فهد الهويمل بتاريخ الخميس ٢٠٠٨/١٠/٣٠م.
- العرب في صقلية – دراسة في التاريخ والأدب – د/إحسان عباس – دار الثقافة/ بيروت، لبنان – الطبعة/ الأولى ١٩٧٥م.
- العربية لغة العلم والحضارة – مقال في النت للأستاذ / عبد العزيز بن عبد الله بتاريخ ١١/ ١١/ ٢٠١٦.
- علم التاريخ – هرنشو – ترجمة/ عبد الحميد العبادي – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة ١٩٤٤م.
- علم اللغة العام – د/ توفيق محمد شاهين – دار أم القرى ١٩٨٠م.
- علماء وحكماء من الغرب أنصفوا الإسلام (ردود على حملات تشويه صورته في أوروبا وأمريكا) – الحسيني الحسيني معدي – دار الكتاب العربي/ دمشق، القاهرة – الطبعة/ الأولى ٢٠٠٧م.
- فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات – د/ شوقي أبو خليل – دار الفكر المعاصر/ بيروت، دار الفكر/ دمشق ١٤١٨ه/ ١٩٩٨م.
- الفصحى لغة القرآن – أنور الجندي– دار الكتاب اللبناني/ بيروت، لبنان ١٤٠٢ه/ ١٩٨٢م.
- فضل الأندلس على ثقافة الغرب – خوان فيرنيث – ترجمة/ نهاد رضا – دار إشبيلية للدراسات/ دمشق – الطبعة/ الأولى ١٩٩٧.
- فضل الإسلام على الحضارة الغربية – مونتجمري وات – ترجمة/ حسين أحمد – دار الشروق/بيروت – الطبعة/ الأولى ١٩٨٣م.

- فضل العرب على الأندلس – خوان فيرنيت – ترجمة/ نهاد رضا، وتقديم/ فاضل السباعي – إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع/ دمشق، سوريا – الطبعة/ الأولى ١٩٩٧م.
- فضل علماء المسلمين على النهضة الأوربية – د/ عز الدين فراج – دار الفكر العربي/ القاهرة ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٢م.
- الفكر اللساني الغربيّ مقوماته وخصائصه قراءة وصفيّة تحليليّة – أ/ عبد الرحيم البار – مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد (السابع) ماي ٢٠١٦م.
- فن الترجمة وعلوم العربية – إبراهيم بدوي الجيلاني – الهيئة العربية للكتاب/ الرياض – الطبعة/ الأولى ١٩٩٤م.
- القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام (مذكرات جوانفيل) – جوانفيل – ترجمة/ حسن حبشي – دار المعارف/ مصر – الطبعة/ الأولى ١٩٦٨
- قُرْطُبَة درة مدن أوروبا في العصور الوسطى – حسين مؤنس – مجلة العربي، العدد (٩٥)، أكتوبر ١٩٦٦م.
- قصة الحضارة – وِل ديورَانت – ويليام جيمس ديورَانت – تقديم الدكتور/ محيي الدّين صَابر – ترجمة الدكتور/ زكي نجيب محمُود وآخرين – دار الجيل/ بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م
- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث – د/ مازن الوعر – دار طلاس/ دمشق – الطبعة/ الأولى ١٩٨٨م.
- اللغة – فندريس – ترجمة/ عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص – مكتبة الأنجلو المصرية/ القاهرة.
- اللغة الشاعرة – عباس محمود العقاد – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة/ مصر، من دون تاريخ.
- اللغة العربية أساس نهضة أمتنا ووحدتها – د/عبد الكريم خليفة – مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج، السنة الثامنة، (شوال، ١٤٠٤هـ، ربيع الثاني، ١٤٠٥هـ– تموز– كانون الأول، ١٩٨٤م).
- اللغة العربية في أوروبا – فيليب دي رازي – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة/ مصر – من دون ط، ت.

- ماذا قدم المسلمون للعالم إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية – د/ راغب السرجاني – مؤسسة اقرأ/ القاهرة – الطبعة/ الثانية ١٤٣٠ه/ ٢٠٠٩م.
- المجتمع الصليبي في بلاد الشام – جمعة الجندي – مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٦ م.
- مجلة إشكالات في اللغة والأدب – المركز الجامعي لتامنغست/ الجزائر – مجلد: (٨) عدد: (٣) السنة ٢٠١٩ رقم العدد التسلسلي ١٨.
- مدخل إلى علم اللسان الحديث – د/ عبد الرحمن الحاج صالح – مجلة اللسانيات، معهد العلوم الصوتية واللسانية/ الجزائر العدد (٦) سنة ١٩٨٢م
- مراجعات لسانية – د/حمزة بن قبلان المزيني – كتاب الرياض، ع/ ٧٥، فبراير ٢٠٠٠م.
- مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين – د/ علي بن إبراهيم الحمد النملة – مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض السلسلة الثانية (٤) ١٩١٢ه/ ١٩٨٢م.
- معابر التواصل اللغوي والحضاري بين الشعوب (صقلية) – د/أنور محمود زناتي – مقال بشبكة الألوكة تاريخ الإضافة 10/1/ 2012م – ١٤٣٣/١١/١٥ه.
- معالم الحضارة في الإسلام – د/ عبد الله ناصح علوان – دار السلام/ القاهرة – الطبعة/ الرابعة ٢٠٠٥م.
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب – محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل – تح/ جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٥٧م.
- مقدمات العلوم والمناهج – أنور الجندي – دار الأنصار/ القاهرة، مصر – د، ت.
- مقدمة في تاريخ العلم – جورج سارتون – ترجمة مجموعة من المترجمين – دار المعارف/ بيروت١٩٩١م.
- مكانة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة – د/ حمزة بن قبلان المزيني.
- ملامح من تاريخ اللغة العربية – أحمد نصيف الجنابي – وزارة الثقافة والإعلام/ بغداد ١٩٨١م.
- من آثار النحو العربي في النحو العبري في الأندلس – د/ محمد خالد الرهاوي – حوليات الآداب واللغات/ كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف/ المسيلة الجزائر– المجلد (٩) عدد (٣ – ١٩) أكتوبر ٢٠٢١م.
- من إسهامات العرب القدامى في مجال الدراسات اللسانية – مقال للدكتور/ عبد الله أحمد جاد الكريم حسن – نشر على موقع شبكة الوكة في تاريخ الإضافة ٦/ 2015 12/م – ١٤٣٧/٢/٢٣ه.

- نظرية التقدير عند النحاة العرب والمسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين تشومسكي مجدد النحو العربي – د/ جاسم علي جاسم – مجلة العلوم العربية والإنسانية جامعة القصيم – المجلد (٣) ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م.
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث – د/ نهاد الموسى – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ط/ أولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- نظرية تحليل الأخطاء في التراث العربي – د/ جاسم علي جاسم – بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (٧٩)، السنة (٤٣) ٢٠١٠م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني – تح/ إحسان عباس – دار صادر/بيروت، لبنان.
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) – أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد – تح د/ جمال الدين الشيال – مكتبة الخانجي/ القاهرة – الطبعة/ الثانية ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.
- ياقوتة الأندلس – حسن الواركلي – دار الغرب الإسلامي/ لبنان ١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	المُلخص .	٢٠٦٠
٢-	Abstract	٢٠٦١
٣-	المُقَدِّمَةُ	٢٠٦٢
٤-	التمهيد : الدراسات اللغوية عند العرب والغرب بين الأصالة والتأثير والتأثر	٢٠٦٤
٥-	المبحث الأول : بلاد الأندلس وصقلية ودورهما في نقل الدراسات اللغوية العربية إلى الغرب ومدى التأثر بها	٢٠٧٥
٦-	المبحث الثاني : الترجمة ودورها في نقل التراث العربي الى الغرب ومدى التأثر بها	٢١٠٢
٧-	المبحث الثالث : الحروب الصليبية ودورها في نقل التراث العربي الى الغرب ومدى التأثر به	٢١٢٠
٨-	المبحث الرابع : شهادات المنصفين من علماء الغرب على تأثرهم بالدراسات العربية والإسلامية	٢١٣٠
٩-	الخاتمة	٢١٤٧
١٠-	فهرس المصادر والمراجع	٢١٥١
١١-	فهرس الموضوعات	٢١٥٨